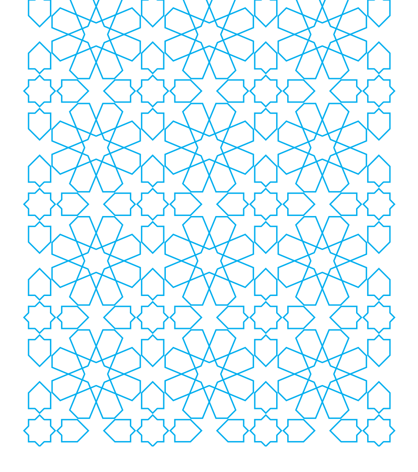


أسنّة القرآن وهدير الطوفان

"دروس قرآنية في أحداث طوفان الأقصى"

تأليف

د. رأفت محمد رائف المصري

المشرف العام على مؤسسة مدارج



اسم الكتاب	أسنة القرآن وهدير الطوفان.. دروس قرآنية في أحداث طوفان الأقصى
اسم المؤلف	د. رأفت « محمد رائف» المصري
التصميم والإخراج	(Bubbles media) Jordan- Amman- 00962780290043
التدقيق والمراجعة	مؤسسة مدارج
الإشراف الـــعام	م. حسن صالح



الطبعة الأولى

2024 م / 1445هـ

ردمك 9789957640903 ISBN

رقم الإيداع لدى المكتبة الوطنية: 2024/03/1607







مؤسسة الفرسان للنشر والتوزيع

Al Fursan Est. For Publishing & Distributoring

الأردن - عمـــان - العبدلـــــي

Jordan -Amman - Abadli

+962 6 565 3470 | +962 6 560 7386

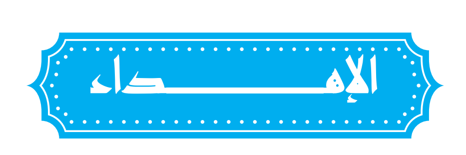
+962 79 7383 666 | +962 79 520 8684

alfursan111@yahoo.com

@alfursanjordan





الإهداء

ليتنا نهديهم أرواحنا لا كلماتنا..

نهديها إلى أرواح الشهداء الذين أضاءت دماؤهم ما أظلم من الأرض؛ فكانت نوراً وهدى وبصيرةً وتُقى..

نهديها إلى أساتذة التضحية والفداء؛ الذين أيقظوا فينا الإيمان، وعلمونا دروس العقيدة والتوحيد..

وإلى الذين صنعهم الله على عينه؛ فأحضرهم للمثول بين يديه في محراب عبوديته، وفسح لهم في ميدان الجهاد ليصلوا إلى ذروة سنامها..

وإلى الذين دكُّوا معاقل الجيش الذي ظن الناس أنه لا يُقهر؛ فقهروه.

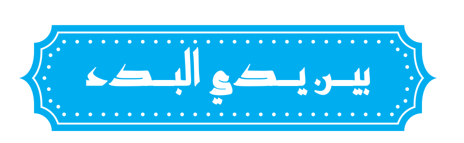
وأذلوا غطرسته؛ وقد ظن الناس أنه يعلو ولا يُعلى عليه؛ فإذا هو تحت أقدامهم: ذليلاً مخزياً مذموماً مدحوراً..

وإلى الذين صبروا وفَقدوا وجُرحوا ونزحوا وجاعوا وعطشوا وخافوا؛ فنعم الصابرون الصامدون.. الكبراء الوجهاء الرائعون.

إليهم وإلى الذين ربوهم من قبل في حلقات القرآن ومشاريع التحفيظ ومحاضن التربية ونشاطات الدعوة..

إليكم جميعاً هذه الكلمات..

ممزوجة بالإجلال لدمائكم الزكية والإكبار لتضحياتكم العليَّة.



الحمد لله معز أوليائه ومذل أعدائه، والصلاة والسلام على النبي المجاهد الشهيد، وعلى صحبه الأطهار وجنده الأبرار، وعلى من تابعهم في جهادهم بالليل والنهار، إلى أن يرث الله الأرض ويأذن ببدء الحساب، وبعد:

فقد انفجر "طوفان الأقصى" المجيدُ صبيحةَ السابع من أكتوبر ٢٠٢٣م؛ مؤذناً بدخول عصر جديد تتغيَّر فيه المعادلات، وتتخلخل فيه الأسس التي ارتفع عليها بنيان الإفساد "الإسرائيلي" الخبيث.

لقد كان يوم السابع من أكتوبر يوماً يشبه الأحلام الجامحة التي يراها المشتاقون إلى التحرير، لكأنه جاءنا من المستقبل البعيد يحمل معه الكرامة التي أُهْدرت، والعزةَ التي افتُقدت على مدى عقود.. أو أكثر.

جاء الطوفان المقدس بشارةَ قرآنٍ وخبر نَبيٍّ ووصفاً تعلمناه من العلماء الربانيين والمجاهدين الصادقين، أعاد إلى الحياة عمرَ وخالداً والمثنى والقعقاع ونور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي والظاهر بيبرس والمظفر قطز.

عادوا بسيَرهم وهممهم وشجاعتهم وبطولتهم في المجاهدين الغزيين وجند المقاومة القرآنيين..



أحيوا بمنطقهم وأحوالهم في قلوبنا قيم القرآن ومعاني القرآن، وكأننا نقرأ القرآن من جديد ونراه يتنزل كما تنزل شيئاً فشيئاً على حوادث نعيشها ونراها.

لقد صار للقرآن في قلوبنا طعم آخر، أو قل: لقد استشعرت قلوبنا آيات القرآن، لكأننا عشنا تنزُّله من جديد.

إن كل شيء في الطوفان عاد بنا إلى القرآن وشدنا إليه وأحياه في قلوبنا..

لا أكتمكم حديثاً- أيها الكرام- لقد عشت لحظات متوترة في بدايات المعركة؛ توتر غضبي أرهقني صحياً- حالي حال كثير من الناس- حتى رأيت أنني أفقد السيطرة على مشاعري وقدرتي على التفكير بهدوء.

ضاقت الدنيا بي حقاً وأظلم الكون، إلا من مشكاة نورانية أخذت أشعَّتُها بعيني لا أملك صرف بصري عنها، ولا أن تطرف عيني عن ملاحظتها.

إنها أنوار الهداية القرآنية التي تدلنا كلما ضعنا، وتهدينا إذا ضللنا..

لست من النوع الحالِم! ولا أحب التكلف في تفسير آيات القرآن..

لكني قرأت قول الله:

﴿ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝١٨﴾ (الأنفال 18) فعرفت أن كيدهم إلى تباب.

وقرأت:

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ١٩﴾ (الأنفال 19)، ونظرت إلى شبابنا هؤلاء فرأيتهم من المؤمنين الكُمّل بحسب ما بدا لنا- ولا نزكي على الله-.

فقلت:

من كان الله معه فكيف يُغلب؟.

وقرأت:

﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ﴾ (المائدة 64)، فقلت:

نعم يوقدون نار الحرب ليحرقوا أولياء الله، لكن الله يتولى إطفاءها..

وقرأت:

﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾ آل عمران [111]، فأَمِنتُ اجتثاثَ المقاومة، وتلاه قوله: ﴿وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾، فاطمأننت.

وازددت اطمئناناً لما قرأت:

﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ١٧٣﴾ (الصافات 173)، ثم لم يسعني إلا أن قلت: إننا سننتصر..

لست أعرف بالضبط شكل الانتصار كيف يكون، لكنني بتُّ متأكداً من أننا سننتصر بإذن الله.

عندها:

سكنت نفسي واطمأنَّ قلبي، وعرفت أننا إلى خير، مع قلق شديد من جهة أخرى؛ منشؤه حديث الطائفة المنصورة:

"لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لعدوهم قاهرين، لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك".

هذا النص- وإن كان مطمئناً لي من جهة نتيجة معركة إخوتي- فإنه أقلقني من جهة ذكر المخالفين والخاذلين، فالمخالفون هم خصماؤهم، وقد أَمِنَّا أن نكون خصماء لهم بالمنهج والطريق- بفضل الله علينا وهدايته لنا-.

لكن المقلق لفظ الخذلان.

فالخاذلون هم إخوانهم وأحبابهم الذين تُتوقَّع نصرتهم فلم ينصروهم، ويُنتظر نفيرهم فلم يَنفروا، ويُتأمَّل التحامُهم فلم يلتحموا.

نعم؛ نحن ضعفاء، وضعفنا هو الذي حال دون نفيرنا والتحامنا في المعركة التحاماً كاملاً، لكن إشكال الضعف عندنا يزيدنا ذنباً إلى ذنب خذلانهم.

وليس الضعف عذراً دائماً، ففي حالتنا هذه قد يكون الضعف هو الخطيئةَ الأساسيةَ الذي تفرَّع عنها خذلان الطائفة المباركة ..

لقد تلبست الأمة عموماً بمعصية الغفلة، وغشيها نوم التفريط، وغلبت عليها شهوتها وشِقوتها، وأقبلت على الدنيا مستكثرة منها لاهثة وراء زخرفها الكاذب، حتى فجأها الطوفان، فلم تستطع الصعود معه، وأضاعت فرصة اعتلائه وإثراء تدفقه لتحطيم سدود الجاهلية وإرثِ مرحلةِ الاستعمارِ واغتنام لائحةِ الاجتثاثِ السريعِ للكيان المجرم.

سيزول الكيان يوماً ما، ولعله يكون قريباً بإذن الله، وبركات الجهاد وأنوار دماء الشهداء تثمر صحوة وخيراً كثيراً قادماً إن شاء الله..

السابع من أكتوبر يوم من أيام الله، أيقظ في الأمة خيراً، وأنبت صحوة، ونكأ عدواً، وحرك ماء آسناً..

وسيخلَّد هذا التاريخ وتحتفي به الأجيال، وسيكون علامة فارقة في تاريخ الأرض وحركة الأمم، ومن عجيب لطائفه أنه يوافق ٢٢ من شهر ربيع الأول من عام ١٤٤٥ للهجرة؛ شهرِ ربيع الذي أزهرت فيه الأرض بمولد رسول الله ﷺ ؛ ربيعٍ الذي لا عدمنا بركاته؛ رجع ربيع بميلاد الأمة من جديد،

وسيشكل إن شاء الله المنعطف الذي تستدير منه الأمة عائدة إلى طريق خيريتها في الأرض وأستاذيتها بين الأمم؛ والله على تحقيق المقاصد وتبليغ الآمال قدير.

إن مُصاب الكيان في معركة الطوفان مصاب كبير -بفضل الله-، وجرحه فيها لن يُشفى- بأمر الله، ولعمرو الحق إن ثمة شفاء ينتظر تلك الصدور المؤمنة التي أوذيت في الله وجُرحت في الله وصبرت لأجل الله، وإن ثمة انتقاماً مُراً ويوماً حَطوماً ينتظر الاحتلال ومجرميه وحلفاءه والذين راهنوا عليه وربطوا مصائرهم ومصالحهم به.

لقد سقط رهان العدوِّ على ردع المسلمين وتخويفهم وقطع آمالهم في اجتثاثه؛ سقط بسقوط نظريته الأمنية والعسكرية حين صدمها انفجار الطوفان وجرَفها وأظهر زيفها.

ومع امتداد الطوفان وزمجرة أمواجه العاتية واستمرار تدفقه الغزير بدأ حصار الأسس التي قامت عليها الحضارة الغربية، وتعرَّضت قيمها الليبرالية لزلازل في قلوب أبنائها قبل أن تزلزل في قلوب المسلمين، وبدا الغرب الرسمي منحازاً انحيازاً "أيدولوجياً" مجرماً دموياً أخرق أحمق عديمَ الأخلاق، خصوصاً أن امتحانه هذا كان بعد عزفٍ موسيقيٍّ طويلٍ على أوتارِ الديمقراطيةِ وحقوقِ الإنسان في الحرب الروسية الأوكرانية.

الدماء كثيرة، وأنات الثكالى وصيحات أوجاع الفاقدين تصخ الآذان، ومشهد الدمار لا يشبه ما يعرفه الناس من ألوان الإجرام؛ بل قد تجاوز كثيراً مألوف المجرمين فضلاً عن الأسوياء.. وكل هذا أرهقنا وآلمنا وبلغ منا الجَهد.. فإلى الله المُشتكى.

لكن فاتورة التحرير باهظة، وضريبة التخلص من الكيان المجرم ضخمة.. والعاقبة رغم كل شيء إلى خير، وقد ألم الكيان ونزح مستوطنوه وخافوا وبات كثير منهم مقتنعاً بأن العيش في "أرض العسل واللبن" لم تعدْ ممكنة، وصارت تعابير وصف المعركة هذه بـ "الوجودية"، وهزيمة الاحتلال المحتملة بـ "الهزيمة الإستراتيجية" أكثر من أن يُحصى على ألسنة الساسة الصهاينة وحلفائهم؛ فضلاً عن المؤمنين بوعد الله الذي لا يُخلف الميعاد.

أما أنتم يا أهل غزة فقد أبليتم بلاء حسناً؛ إن في القتال أو في الصبر والصمود، وقدَّمتم نماذج عادت بالناس إلى عصر أصحاب رسول الله ﷺ ، فما بين: "أَحَدٌ أَحَد" من فم بلال بن رباح المعذَّب في شعاب مكة، و"الحمد لله" من أفواه الغزيين المظلومين تحت الأنقاض في غزة: تشابهٌ شديد.

كلتا العبارتين صخرةُ صبرٍ وتحدٍّ وصمود تحطمت عليها أمواج الطغيان..
كلتاهما شكَّلت صدمة لعرش الباطل في الأرض وزلزالاً لمشروعه الحضاري.

وكلتاهما أحدثت خلخلة في صف الشر ونفوراً عنه، واجتذاباً لصف الخير والإيمان.
فجزاكم الله عن الأمة خير الجزاء، وأجزل لكم المثوبة والعطاء..

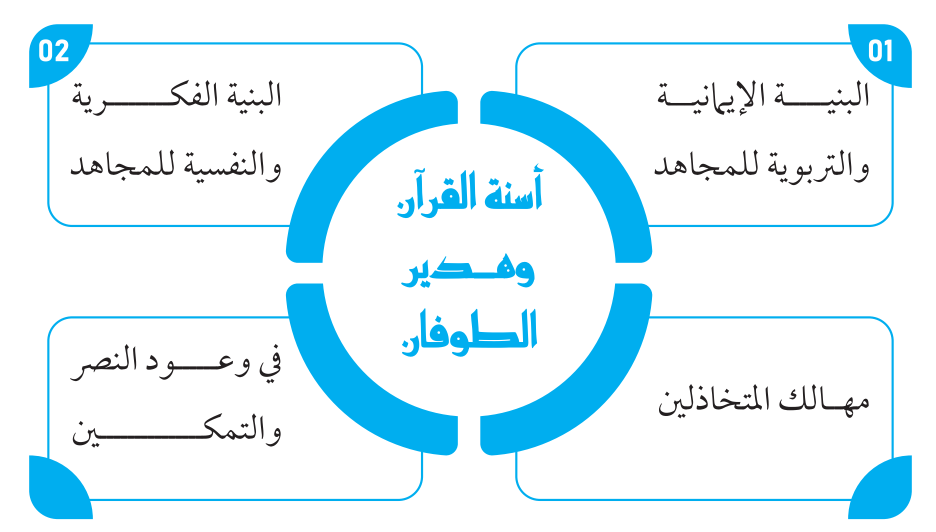
وبعد - مرة أخرى-:
فقد التزمت في أيام متتالية بكتابة مقالة قرآنية تعالج أحداث المعركة، وتسلط الضوء من خلال القرآن الكريم على بعض المعاني التي تدعو الحاجة إليها، وآياتُ القرآن المُلهمة تمدني بمدد ربانيٍّ من المعاني التي انتفعت بها قبل أن أحاول نفع القراء، وقرَّت في قلبي طمأنينة قصدت نقلَها إليهم، وأثارت فيَّ رؤىً في العمل والجهاد أحببت مشاركتها معهم.

ثم رأيت- وشجعني الإخوة من حولي- أن أجمعها وأحررها وأرتبها بحيث يطول عمرها بين أيدي الطالبين، ولتصل إلى شريحة أخرى من المهتمين، ثم قلت: لعله يكون مقدمة لأعمال أكثر تكاملاً في السياق ذاته، وقد سميته "أسنة القرآن وهدير الطوفان":

فالأسنة جمع سنان، وهو حد النصل أو الرمح الذي به يجرح ويقتل، وأسنة القرآن- كما قصدتُ-: آياتُ الجهاد التي حضَّ الله تعالى بها المؤمنين على قتال أعداء الله والدفاع عن دينه.

وهدير الطوفان أي الصخب الذي أحدثه طوفان الأقصى، وقد كان هديراً عالياً كفيلاً بتغيير مجرى الأحداث وصناعة مسارٍ جديد لمستقبل فلسطين الإسلامية؛ بل ومستقبل المنطقة كلها، وسيصل العالم من أنوار ذلك في وقته ما يخفِّف وطأة العلوِّ "الإسرائيلية" واستحواذَه على أقوات الشعوب ومصائرها، والله غالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

وقد استعرضت هذه المقالات القرآنية ورأيت أن أرتبها تحت عنوانات أربعة:





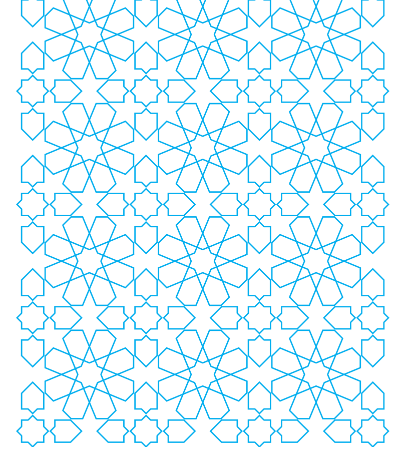
هذا؛ وأسأل الله العظيم أن يُقرَّ العيون بنصر من عنده، يجعل لنا فيه سهماً، وأن يعيننـــا على أداء ما علق بذمتنـــا من نصرة إخـــواننا وتطهـــير مـــسرى رسولنا ﷺ ، إن ربنا رحيم ودود.

د. رأفـــت المصـــري

الســـابع من شعـــبان ١٤٤٥ للهـــجرة

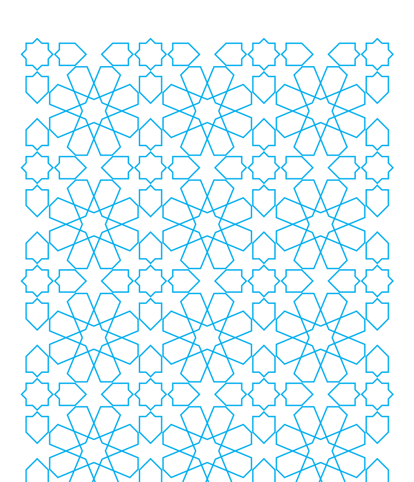
الموافق للسابع عشر شباط ٢٠٢٤ للميلاد

اليوم الرابع والثلاثين بعد المائة من معركة طوفان الأقصى

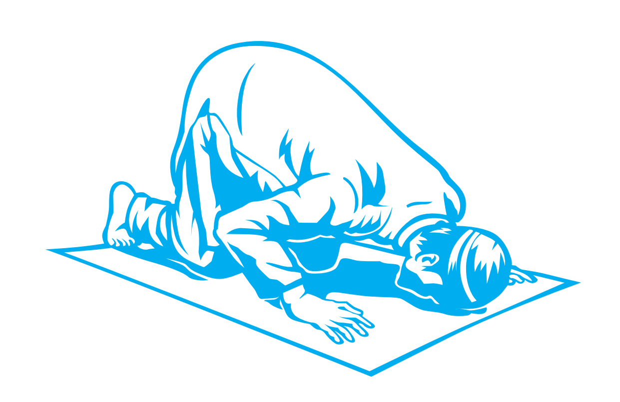


أولًا:

البنية الإيمانية والتربوية للمجاهد



إن الخطوة الأولى في الطريق هي تعميق الإيمان في القلوب، وتعظيم الله فيها، وتعليقها بالآخرة، وتزهيدها بالدنيا.. هي الخطوة الأولى والأهم.



أولاً: البنية الإيمانية والتربوية للمجاهد

الناظر في آيات القرآن يمكنه أن يلمح منهجاً قرآنياً لبناءٍ إيمانيٍّ وتربويٍّ يؤهِّل المسلم لمواجهة صفِّ الشّرّ ولاحتمال أعباء تلك المواجهة وما يترتب عليها من لأْواء.

وهذا البناء يراعي باقة واسعة من مفاهيم الإيمان الأساسية، وتعظيم الآخرة في القلوب، والتزهيد في الدنيا، وبيان معية الله جل وعز للمؤمنين الذين ينصرون دينه ويصبرون على استحقاقات تلك النصرة، وفضائل الجهاد التي تحثّ على الحرص عليه والشوق إلى خوض غماره والتقرب به إلى الله، وفضل الشهادة في سبيل الله ومكانة الشهداء عند ربهم وما أعده لهم من النعيم المقيم، وغير ذلك مما يشكِّل أساساً قوياً للمجاهد في مواجهة أعداء الإسلام.

وحريٌّ بالعلماء والمربين أن يعكفوا على استنباط المنهج القرآنيِّ بدقة، وأن يؤطروه تأطيراً يمكِن معه أن يتحول إلى برامج تربوية يمكن تنفيذها وتربية الشباب عليها.

وهذه الخطوة التأسيسية؛ لا يمكن تجاوزها إلى ما بعدها طالما لم تتحقق في النفوس، ولم تلقَ العناية اللائقة بها.

وحقيق بهذه الخطوة التأسيسية أن تصاحب السائر في طريق الفتح المقدس إلى آخر أنفاس حياته، فالزاد الإيماني والتربوي زاد يهلك السائر في الطريق إن نفد من جعبته، ولم يبق له منه ما يعينه على استكمال الطريق الشاقِّ الطويل.

وما نسجله هنا خواطر متناثرة تتعلق بالبناء الإيماني والتربوي؛ تكشف شيئاً من طبيعة الطريق، وتقدح في ذهن قارئها معانيَ تشدُّ أزره، وتوقد شمعة إيمان في قلبه.



قول الله تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾﴾ (البروج 12).

جاءت هذه الآية ألذَّ من الماء البارد على الكبد الظمآى.

سرُّ ذلك في موقعها من سياقها:

فقد ذكر الله تعالى في مطلع السورة قصة أصحاب الأخدود، وتحريقَ القتلة المجرمين لأولياء الله الصالحين، واستطالتهم عليهم في هذه الحياة الدنيا..

وبين أن الأمر وإن انتهى على هذه الصورة هنا فإن هناك صورة معاكسة تماماً في الآخرة:

- القتلة المجرمون هلكوا هلاكاً مريعاً: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾﴾ (البروج 10).
- والمؤمنون المستضعفون الذين صمدوا تحت نيران العدو المجرم: ﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾﴾ (البروج 11).

كان في غايةِ البلاغة أن يأتي بعد هذا الحشد من المعاني- التي أثارت القلوب بغضاً لأولئك القتلة بعد جريمتهم النكراء في تحريق المستضعفين- قولُه:

﴿إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ١٢﴾ (البروج 12).

هكذا مؤكَّداً ب "إن" واللام، لدفع وهم سبْقِهم لله وإفلاتهم من عذابه ونجاتهم بجريمتهم..

"والبطشُ" الأخذُ بصَولة وعنف، كما عند الراغب في المفردات، والتعبير به موحٍ حقاً بما ينتظر أعداء الله من الأخذ الشديد.

وإسنادُ البطشِ إلى عنوان الربوبية: ﴿بَطۡشَ رَبِّكَ﴾؛ ليشير إلى أن البطش الذي مارسه المجرمون سيجازَى ببطش شديد؛ إذ هو بطش الرب العظيم.

وإخبار الله عن هذا البطش بأنه "شديد" منبئ بأنه بطش لا تُقادر شدته ولا تُتصوَّر، إنه فوق ما يعرفه البشر.

وعجباً لإسناد الرب إلى ضمير المخاطب: (ربك)، نعم؛ إن أول مخاطَب به هو رسول الله ﷺ، لكنه ضمير يصلح أن يخاطَب به كل مؤمن ذاق نيران العدو المجرم، وأرهقه أزيز طائراته المدمرة، وفقدَ أحب الناس إليه تحت الركام، ورأى قسوة العالم من حوله، وآلمه خذلان الأحبة والأصدقاء.

حقٌّ له- إذاً- أن يتبرَّد بانتظار نُصرة ربه، فيخفّ وهج الآلام، ويثق بأن من رباه وقَبِلَه في محراب عبوديته لن يكلَه إلى عدوِّه.

وإذا نزل عذابه بقوم فساء صباح المنذَرين.

وإذا أخذ القرى وهي ظالمة أخذها ببطشه الشديد وأذاقها عذابه العتيد:
﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ١٠٢﴾ هود.



﴿مَا كَانَ لِأَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ وَمَنۡ حَوۡلَهُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرۡغَبُواْ بِأَنفُسِهِمۡ عَن نَّفۡسِهِۦۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ لَا يُصِيبُهُمۡ ظَمَأٞ وَلَا نَصَبٞ وَلَا مَخۡمَصَةٞ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوۡطِئٗا يَغِيظُ ٱلۡكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنۡ عَدُوّٖ نَّيۡلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٞ صَٰلِحٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٢٠﴾

(التوبة ١٢٠)

التخلف عن الجهاد خَرْقٌ دينيٌّ واسع؛ فكيف إن كان تخلفاً عن جهاد مع ﴿رَّسُولِ ٱللَّهِ﴾.

ثم كيف إن كان المتخلف من أهل المدينة أو ممن حولهم من الأعراب؛ فقربهُم من رسول الله ومجاورتهم له شرف له ضريبة- وليست ضريبةً لعمرو الحق-.

وهي أنه تتأكد منهم حرمة التخلف عن رسول الله ﷺ ويتأكد عليهم وجوب نصرته.

وقوله: ﴿وَلَا يَرۡغَبُواْ بِأَنفُسِهِمۡ عَن نَّفۡسِهِۦ﴾، احتوى على الفعل "رغب"، وهو فعلٌ يختلف معناه بحسب ما يتعدى به من حروف الجر؛

فـ "رغب به": آثره وأقبل عليه، يضاده: "رغب عنه"، بمعنى: آثر عليه وعدل عنه، وقد احتوت الآية عليهما معاً:

فالرغبة بالنفس عن رسول الله: الاستئثار بها وتقديمها على نفسه ﷺ بصورة من الصور.

إن للقرب استحقاقاً، يقبح معه التخلف عن القيام بالاستحقاق.

وإذا كان المرغوب عنه: رسولَ الله قبُحت- أيما قبح- الرغبةُ بالنفس عنه ﷺ .

وفي معركتنا هذه ما يقارب هذه المعاني من وجوه، فالله تعالى قد جعل خصوصيةً لبيت المقدس من بين بلدان الأرض، فالتفريط فيها أعظم من التفريط في غيرها، وإن كان التفريط في أي بلد من بلاد المسلمين جريمة نكراء.

ثم إن القرب منها له وجهان:

"الأول" القرب الحقيقيُّ المكاني.

فالقريب من غزة مكانياً يتأكَّد عليه وجوب الدفاع عن إسلاميتها، وهو أولى بها من غيره، واللومُ عليه إذا تخلَّف أشد.

"والثاني" القرب المعنوي.

فالمسلمون- عموماً- بحكم تدينهم، والإسلاميون - خصوصاً- بحكم فكرهم: أولى بالانتصار لإخوانهم من غيرهم، والمفترض أن يكونوا في مقدمة العالم في ذلك، ولا يتركوا لغيرهم التقدم عليهم في شرف نصرة إخوانهم وقضيتهم المباركة.

ويقبح من هؤلاء الخذلان؛

فخذلانُ أهل غزة ومقاومتِها قبيحٌ من كل إنسان، لكنه من المسلمين أقبح، وهو من المسلمين القريبين من غزة- في فلسطين وما حولها- أشد قبحاً.

فتأمل هذا المعنى..

والحق أنه ما كان لأهل فلسطين ومن حولهم من المسلمين أن يتخلَّفوا عن نصرة غزة، ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفوس أهلها وأطفالهم.. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وأما قوله سبحانه:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.



ففيها تعليـــلُ ما جاء في صـــدر الآية من التشـــديد على التخـــلفِ عن رسول الله ﷺ وتركِ الجهاد:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ لَا يُصِيبُهُمۡ ظَمَأٞ﴾ باعتبار العطشِ مخوفاً في شدة الحر الذي كانت فيه غزوة تبوك، ﴿وَلَا نَصَبٞ﴾ تعبٌ نتيجةَ قلةِ الظهر، وعسرِ الترحال في الطريق الطويل، ﴿وَلَا مَخۡمَصَةٞ﴾ مجاعةٌ وقلةُ زاد؛ وكلُّ هذا مما لا يُتصَوَّر الجهاد خالياً عنه.

إن في كل خطوة من خطوات الجهاد نصباً، وفي المسير في تلك الصحراء القاسية مظمأةً ومخمصةً، يرجو المجاهد بركتها؛ تعود عليه مجداً في الدنيا وكرامة، وأجراً في الآخرة وسعادة ورضىً..

ويلفتُ النظرَ قولُه– معطوفاً على ما سبق–:
﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوۡطِئٗا يَغِيظُ ٱلۡكُفَّارَ﴾.

إن كل عملٍ بل كلَّ خطوةٍ يحصلُ بها "إغاظة" للكفار أعداءِ الله ورسوله: هي خطوةٌ مباركةٌ محمودةُ العاقبة، مرجوة الأجر.

بل يمكنك أن تقول:

دلتْ الآية على عبادةٍ جليلة وقربة فريدة المعنى: إنها عبادة "المراغمة" و"الإغاظة" لعدوِّ الله.

دلت على أن مجرد إغاظة العدو بموقف أو كلمة أو بإظهار القوة والصبر هو عبادة يرضى الله عن صاحبها.

عبادة قد يغفل عنها الكثيرون، وحريٌّ بالمؤمن أن لا يترك الدنيا إلا وقد قدمها وتعبَّد الله تعالى بها..

﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا﴾ أيَّ نيلٍ؛ نيلٍ عسكريٍّ أو سياسي أو ثقافي أو إعلامي.

﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ﴾ عظيم ﴿صَٰلِحٌ﴾ يُرجى به حصول الرضوان ودخول الجنان!

يا لها من عروض مغرية وفرص يجيدُ الموفقون اصطيادها.

إن هذا النوع من العبادات يسلك صاحبَه في سلك "المحسنين"، وهم أعلى مراتب المؤمنين وأقربهم من الله، ولأجل هذا المعنى ختَم الآية بقوله:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

إنها عبادات المحسنين بحق. فأين المشمرون؟



سلاح لا يملكه إلا مؤمن!

قوله تعالى: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ۝١٦﴾ (الأحزاب 16).

في سياق الرد على المنافقين الذين لا يفوِّتون فرصة للافتتان إلا افتُتنوا، ولا مخرجاً للهروب من تكاليف الدين العالية- كالجهاد- إلا فروا؛ ظانين أنهم بذلك يفرون من الموت المقدر فيخلُدون.

بالمناسبة؛ قد لا يكون هذا الخاطر عندهم منظوراً في وعيهم ولا تصرِّح به نفوسُهم، ولعل ظنهم هذا في "اللاوعي"؛ تظهر أماراته في سلوكهم وشدةِ جزعهم ونفورهم عن الجهاد حرصاً على الحياة.

يلقِّن الله تعالى نبيه ﷺ الردَّ عليهم بمسلمات الإيمان البديهية:

إن فراركم هذا لا يطيل أعماركم: ﴿لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ﴾؛ فإن الآجال مقدرة في الأزل، وإنه إذا نفخت الروح عند التخليق بُعث الملَك فيؤمر بكتب أربع كلمات؛ رزقه وأجله وشقيٌّ هو أو سعيد.

والله تعالى يقول:

﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ٣٤﴾ (الأعراف ٣٤).

ويقول:

﴿أَيۡنَمَا تَكُونُواْ يُدۡرِككُّمُ ٱلۡمَوۡتُ وَلَوۡ كُنتُمۡ فِي بُرُوجٖ مُّشَيَّدَةٖۗ ٧٨﴾ (النساء ٧٨).

وكم رأى الناس مَن اقتحم الأهوالَ من الشجعان وطال عمره.

وكم مات امرؤ آثر السلامة ورضي القعود.

وقوله: ﴿وَإِذٗا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ١٦﴾ (الأحزاب ١٦)، يحمل معنى طريفاً:

إنكم لو انتفعتم بالفرار – فرَضاً – فلم تموتوا ولم تقتلوا؛ فإن انتفاعكم به لن يكون ذا بال.

فإن أعماركم – على أبعد حال – قصيرة.

أيامكم سريعة الانقضاء، ولا مُمسِك للشمس دون الجريِ المستمر؛ الذي تشيب معه رؤوسكم وتنحني ظهوركم..

ثم إنكم في النهاية ستموتون! ولن ينجيكم شيء من الموت.

قد قيل: "عُمْرٌ تَأْكُلُهُ ذَرّاتُ الدَّقائِقِ وإنْ كَثُرَ قَلِيلٌ".

وهذه الحقيقة البديهية عند المؤمن:

- سلاح لا يحمله غيره، ولا طاقة لأحد على إيقافه، إذ من يستطيع إيقاف رجل لا يهاب الموت ولا يفر منه؛ بل يُقبِل عليه؛ عالماً بأن إقباله غير مؤثر في عمره طولاً وقصراً.

- بلسم يمسح جروحَه، ويخفف آلامه، ويهوِّن مصابه، ويطمئنه إلى أن شيئاً من الأذى لا ينال من عمره ولا يقرب من أجله.

إنما هي موتة واحدة مقدرة لا يموت الشجعان غيرها، أما الجبناء الجازعون فيموتون- وهم يفرون من الموت- ألف مرة.



﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ ﴾

(البقرة ٢٤٣، ٢٤٤)

آيتان؛

تعالج الأولى منهما عقيدةَ الموت والحياة، وتبين أنه إذا جاء الموت فلا فرار من أمر الله وقدره، أما الثانية؛ فكأنها مبنية عليها: إنها أمر بالقتال في سبيل الله.

وفي الآية الأولى:

يخاطب الله تعالى نبيه عليه السلام ثم من يصلح له الخطاب من بعد، والمخاطَب على كلِّ حال لم ير ذلك بعينه؛ إنما أراد بالرؤية في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾: الرؤية العلمية، إذ قام الإخبار القرآني مقام الرؤية بالعين.

وبغض النظر عن التفاصيل المتعلقة بالأسماء والأشخاص المُشار إليها في الآية؛ فإن أصل القصة أن قوماً خرجوا فراراً من الموت من قريتهم؛

فأراد الله أن يُعرِّفهم ويعرِّف العالَمِين من بعدهم بأن الفِرار من الموت ليس ينفع صاحبه؛ فأماتهم موتاً تاماً ثم أحياهم ليعاينوا آية الله معاينة.

ووجه الإشارة إلى أنها نعمةٌ مستحقِّة للشكر: خاتمة الآية:
﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾.

- أما وجهُ كونها نعمة عليهم أنفسِهم فظاهر، فقد أحياهم الله بعد موتٍ على تلك الحال الناقصة من ضعف الاعتقاد والجبنِ عن القيام بمأمور أمرهم الله تعالى به، ولو ماتوا على تلك الحال لاستحقوا غضب الله تعالى وعذابه في الآخرة.

- وأما غيرهم من الناس؛ فالشكر واجب عليهم كذلك فإنها نعمة عليهم من وجه؛ فقد وهبهم ربهم مثل هذه الآيات الدالات على الحقائق، المُعِيْنات على الامتثال لأمر الله بالقتال، فالعبدُ إذا استحضر هذه القصة القرآنية وقع في قلبه أنه لا فرار من الموت البتة، وإنما يجبنُ الناس عن القتال لَمَا أنهم يعتقدون غير انتهاء الأجل المقدَّر المحتوم يمكن أن يكون سبباً لانقطاع الأجل.

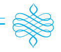
و"محدوديةُ الأجل" أساسيةٌ اعتقاديةٌ عند كلِّ مسلم..
نعم يُحتاجُ إلى التذكير بها؛ ليُستدام حضورُها في ذهن المسلم من جهة، فيستعين بذلك على الاستعداد العام للقاء الله، وليَستعين بها على اقتحام المعارك وعند احتدام القتال من جهة أخرى.

ولأجل هذا المعنى أُتبعت الآية بقوله:
﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ (البقرة ٢٤٤)، فالقتال قبل استقرار هذه الحقيقة ورسوخِ هذه العقيدة في القلب: صعبٌ شاقّ.

يسهِّله اعتقادُ أن إقدامَك وإحجامَك كليهما؛ لا يؤثر في أجلك المقدور.
وألفاظ الآية تزيده تسهيلاً على النفس وتخفف وقعه عليها بتذكيرها أن القتال المأمور به هو في "سبيل الله"، وما دام في سبيل الله فذلك- والله- يستحقُّ البذل والتضحية والفداء، إنه في سبيل الله؛ الرب المُنعم المتفضِّل الوهّاب، فلْتسِلْ لأجله الدماء، ولْتُفارَق الأوطان تلبيةً للنداء العلْويّ العظيم.

وخَتْمُ الآية بقوله: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٢٤٤﴾ (البقرة ٢٤٤) يُشُير إلى وعد كريم من الله السميع لكلماتِكم وتحريضكم على القتال في سبيله، العليم بما في قلوبكم من الرغبة بطاعته وتنفيذ أمره والتضحية لنيل رضوانه.





قوله تعالى: ﴿إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ (التوبة ٤٠).

هما اثنان تكالب عليهم العالَم ورماهما عن قوس واحدة. آواهما غار صغير لا هو بالمنيع ولا هو بالآمن.

لكنْ هناك سكينة خاصة تملأ الغار، ورحمة منشورة فيه، وشعورٌ بالمعية عميق؛ حملت محمداً ﷺ على أن يقول لصاحبه: ﴿لَا تَحْزَنْ﴾.

ثم علل نهيه له عن الحزن بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ﴾..

فأورثهما الله بركة الإيمان بالله واستحضارِ معيته المباركة.

وفي الآية من الفوائد:

- أنه لو تكالبت الدنيا كلها على المؤمن؛ فإن ذلك لا يضره ما دام مستشعراً معية الله، بل من حق هذه المعية الإيمانية أن تطرد عنه الشعور بالوحشة، وتورِثُه الأُنس بالله والقوة والشجاعة.

أن المؤمنون يقوي بعضهم بعضاً ويثبِّتُ بعضُهم بعضاً ويذكرون أصحابهم بمعاني الإيمان؛ خصوصاً في الملمات والمضائق، بخلاف المنافقين الذين يجزعون ويخذِّلون أصحابهم وينشرون القلق.

أن الشعور بالمعية يطفئ نار الحزن ويملأ القلب سكينة وطمأنينة ورضًى بتدبير الله وقدره.

أن عين المؤمن على جند السماء إن خذله جند الأرض، وليوشكن أن يصله المدد الرباني يثبته ويبشره.

أن يقين المؤمن يفتح له باباً من الإدراك الإيماني لا يراه غيره: ﴿لَّمۡ تَرَوۡهَا﴾.

لكنه ﷺ رآه بعين قلبه بوضوح، واستشعر وجوده بعمق، وأطلعه على فضاءات لا يدركها من لم يؤمن بالله ولم يفهم كتابه المجيد.



في قول الله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةً كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٢٤٩﴾

(البقرة ٢٤٩)

هذا الإدلاء الذهبي في حوار الصفِّ المؤمن قبيل ارتطام جيش الحق بجيش الباطل؛ حين اطّلع المؤمنون اطّلاعةً ليشهدوا كثرة المبطلين، وغزارةَ سلاحهم وعتادهم، فوقع في قلوب بعضهم أنْ لا تكافؤ بين الصفين، وأن الكف لا يُناطح المخرز، وأن ميزان القوى غير متكافئ؛ فكان هذا الكلام من الموقنين: سبيكةً ذهبيةً تستحق الخلود.

وهو كلام مبني على عمق إيماني ورسوخٍ تربويٍّ وتسليمٍ مطلق وثقةٍ تامة بالله العظيم وبوعده الكريم.

وليس غريباً هذا الكلام إذا خرج من معدنه:

﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ﴾.

اختُلف في تفسير وصفهم بأنهم ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ﴾، فقيل: هم الذين يوقنون بالآخرة، ويرون أنفسهم بين يدي الله قائمين للعرض والحساب، قالوا: وقد يُعبَّر عن العلم واليقين بالظن.

وذهب بعض المحققين إلى أن الظن هنا قد استُعمل بمعناه المعروف، وهؤلاء ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ﴾ هم الذين كانوا يتوقعون أنهم يُستشهَدون فيلاقون الله، وهو وجه قويّ من وجوه التفسير، وهو المعتمد لدينا.

وعليه:

فهذه "النخبة" من "مشاريع الشهداء" هم المصطَفَوْن المؤهَّلُون للقيام بالأدوار الإيمانية البطولية بحق.

وكلامهم دالٌّ على شجاعتهم وعلى طريقة فهمهم "الإيمانية" للصراع ولميزان القوى، فمن كان الله معه كان الغالب ولا شك، ولا عزاء للجبناء والمتشككين.

وقولهم رضي الله عنهم:

﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ﴾ مصدر بـ "كم" الخبرية المفيدة للتكثير، والمقصود: تقوية القلوب ببيان كثرة ما حصل من ذلك، فالحالة هذه إذاً ليست حالةً نادرةً عزيزةَ الوجود، بل هي حالة متكررة مشهودة.

وهي وإن كانت خلاف ما تقتضيه العادة فإن قولهم: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ جارٍ مجرى بيان سببها، فالله سبحانه إذا أَمَرَ نفِذ أمرُه، وإذا قضى فلا رادَّ لقضائه، والأسبابُ محكومةٌ لفعله وإرادته لا حاكمة عليها.



وإذا حصل اعتقاد ذلك قويت قلوب المؤمنين وتجرأوا على قتال عدوِّهم، ولم يحُلْ دون ذلك تكنولوجيا العدو، ولا نفيرُه وحلفاؤه، ولا صواريخه وطائراته.

ثم إن أعظم سلاح تتسلح به القوة المؤمنة في مواجهة كل ذلك: الصبرُ الذي يستجلبُ معيةَ الله: ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٢٤٩﴾.

وإنما كان الصبر كذلك لأجل طبيعته ذاتها؛ فإنه صبر على أمر الله وصبر لأجل الله، وصبرٌ على لأواء الطريق ووعثائها، وهذا مناط الصبر في منطق الإيمان ومنطق الأشياء سواء.

وقد قيل: "النصر صبر ساعة"، وأبلغ منه قول الله:
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ٢٠٠﴾(آل عمران ٢٠٠).



"الرعب" جندي من جنود الله!

لا نحتاج إلى الانتصار على الصهاينة وحلفائهم غير جندي واحد من جند الله الكثيرين، قال تعالى:

﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ۝٢﴾(الحشر ٢).

إن الرعب جندي واحد من جنود الله، وهو جندي كافٍ لحسم المعركة، فإذا قذفه الله في قلوب أعدائه فهم هلكى.

واستنزال هذا الجندي من السماء يمكن أن يُسهم فيه أي مسلم في الأرض مهما كان بعيداً أو ممنوعاً من بلوغ المعركة.. في سجدة من السجدات الخاشعة!

وعجيب التعبير بـ "القذف": ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾.

فالقذف: الرمي من بعيد؛ كما في عمدة الحفاظ وفي المفردات، والرمي إن كان من مكان بعيد وصل قوياً سريعاً صادماً.



إنه سبحانه يرميهم بالرعب رمياً شديداً يفجأُهم ويفجعهم؛ فتتزلزل تلك القلوب من هول الرمية، وتقتل فيها عنادها، وتثير اضطرابها إلى غيرما هدوء، سبحانه ﴿إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ١٠٢﴾ (هود ١٠٢).

وقذف الرعب هذا ليس "إلى" قلوبهم، وإنما هو فيها! إنه يصيبها في المقتل وينزل منها في وسطها؛ فيُحلُّ فيها داء لا دواء له وعلَّة لا انفكاك منها.. إنه الهزيمة والعجز والخوَر والاضطراب والسقوط.



قوله تعالى:

﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ۝٦﴾

(الأنفال 5، 6)

يد الله تدبر بالخفاء وتسُوق المؤمنين إلى تحقيق الانتصار دون تخطيطٍ منهم أو تصوُّرٍ للمتوقع بدقة.

خرجوا يريدون القافلة، وهي لقمةٌ سائغةٌ سهلةُ التحصيل، وكان يمكن أن يحصل لهم حقاً ما أرادوا منها؛ فتكونَ حدَثاً عابراً تنقلُه الرواياتُ أو لا تنقله.

لكن الله أراد شيئاً آخر أعظم بكثير مما أرادوه لأنفسهم:

﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٧﴾(الأنفال 7).

لم يكن النصر الذي تحقق في بدر منظوراً لدى المؤمنين قبل المعركة، بل إنهم في لحظةٍ قصُرتْ فيها الأنظار وركنت إلى السهل من المسارات وتجنبت اقتحام مغامرة السيف؛ كرهوا ما وجدوا أنفسهم مقبلين عليه من قتال المشركين والاحتكام معهم إلى السيف.

﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾(الأنفال 7).

لكن الذي أخرجك وأخرج المسلمين إلى القتال: الله عز وجل؛ أخرجك بتدبيره الخفي ولطفه الدقيق..

لم تدرك الأبصار- لحظتها- الخير والنصر وراء ذلك الاصطدام العنيف بالباطل؛ فجادلوا رسول الله في ذلك الخروج للقتال.

وللفظِ الجدال إيحاءٌ مصوِّر.

فالجدال محاولة لجدلِ المخاطَب عن رأيه وفتله عنه..

كانوا يجادلونه ﷺ مع ما ظهر من مؤشرات الإرادة الربانية والتدبير الإلهي.

جدل ساخن يُنشئه شعور نفسي بالخطر: ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٦﴾(الأنفال 6).

إنه عجز البشر وقصور علمهم وكراهتهم للقتال مع احتجاب الغيوب عنهم..

لكن وراء منظوراتهم خير لم يتوقعوه.

صارت بدرٌ منعطفاً تاريخياً ترتب عليه تغيُّر معادلات القوى في جزيرة العرب، وتدحرج الخير ليغير خريطة العالم وليشقَّ بوادر النور في جدار الظلمات.

إن هناك في المعركة مع الباطل أبعاداً غير مرئيةٍ يدبرها الله، يكفي العبدَ أن يبذل وُسعه في التخطيط والتنفيذ، ثم فليكِلْ الأمر إلى الله علامِ الغيوب.

وليسلِّم العبد أمره لربه، وليثق بوعده للمؤمنين، وليعلم أن ما كتبه الله كائن وما لم يكتبه فليس.



في قوله تعالى:

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَۚ يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ٢﴾

(الحشر 2)

1 ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾.

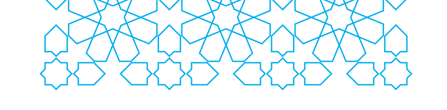
لاحظوا إسناد إخراجهم إلى الله وحده:

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، هو القوي العزيز الذي أخرجهم، الفعال لما يريد، القاهر فوق عباده، وهم رهن إرادته ومشيئته.

وقد يكون البشر أحياناً أسباباً ظاهرية عديمة التأثير في الواقع، قد يكونون ستارا رقيقا لقدرته وإرادته.. لكنه الفاعل الحقيقي الأحد..

فإياك أن تُحجَب بالأسباب الظاهرة وتغفل عن فعله وتدبيره..

إنها يده التي تحرك كل متحرك وتسكِّن السواكن.



2 ﴿لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ﴾ أي في أول وقت حصاركم ليهود بني النضير.

وهنا تتجلى القدرة الإلهية، فإن كل المعطيات كانت تدل على قدرتهم على احتمال حصار المسلمين لهم وقتاً طويلاً؛ حتى قرّ ذلك في اعتقاد الجميع:

﴿مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

تخيل:

من شدة ثقتهم بحصونهم ظنوا أنهم ممنوعون من كل أحد حتى من الله العظيم.

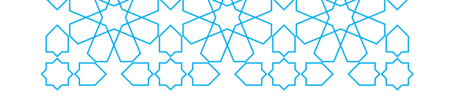
لكن هزيمتهم جاءت من مأتىً غير مادي لم يتوقعوه، جاءت من دواخلهم التي يملكها الله كما يملك ظواهرهم:

﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ﴾.

وتأمل لفظ القذف وما يحمله من ظلال الرمي بعنف:

﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَۚ﴾، والرعبُ جندي لله لا يصيب قلباً إلا أرداه.

فتخلخل نظامهم، وتشتت فكرهم، واضطرب رأيهم فخارت قواهم واضطروا للنزول على حكم رسول الله ﷺ .



3 ﴿يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

ذلك أن هلعهم واضطرابهم الذي أفسد رأيهم وحطم تماسكهم اضطرهم إلى تخريب بيوتهم بأيديهم وتدميرها؛ كي لا يستفيد منها المؤمنون.

وخرب المؤمنون لهم بيوتاً اقتضى الحصار المضروب عليهم تخريبها، فما أشد حسرتهم وهم يفعلون ذلك ويرون المسلمين يفعلونه.

وفي ذلك كله اعتبار لكل من له بصر فضلاً عن أن يكون صاحب تعقل وتدبر:

﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾.

إن قدرة الله ونفوذ إرادته يدركه كل أحد؛ يدركه ببصره المجرد، فآيات قدرته الباهرة وعلامات فوقيته القاهرة تملأ الزمان والمكان، لكن بقيَ على هذا المبصِرِ الاعتبارُ، وهو مناط النجاة.

فهل من معتبر يطمئن إلى لطف تدبيره كمال حكمته فيما يراه؟.



"مِنْ" الحبيبة إلى قلوب المجاهدين!

قوله تعالى: ﴿وَلِيُبۡلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡهُ بَلَآءً حَسَنًا﴾(الأنفال 17).

معنى "أبلاهم الله": وهبهم وأعطاهم النصر ومكَّنهم من تحطيم أعدائهم، من قول العرب تصف من أجاد القتال وأحكم قتل أعدائه: أبلى في القتال بلاء حسناً.

والجملة تعليل جميلٌ علَّل الله به رَمْيَهُ لأعدائه في قوله سبحانه: ﴿وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾(الأنفال 17).

كيف ساغ تعليل هذه بتلك؟

الله رمى فقتلهم برميه؛ وإنما فعل ذلك لعلل؛ منها:

أن ينصر المؤمنين، وأن يهبهم رقاب أعدائهم، وأن يمكنهم منهم.

نَعَم؛

من نِعَم الله على المؤمنين أن يذيقهم طعم النصر، وأن يعليهم على صهوة المجد، وأن يشفي صدورهم من أعدائهم المجرمين.

وهذا بذاته مقصد رباني وغاية إلهية! ومما يزيد هذا العطاء رونقاً وجمالاً ولذة أنه: "منه".

﴿وَلِيُبۡلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡهُ﴾..

إنه "منه" فما ألذ النصر إذا كان منه- ولا نصر إلا منه- وما أحلاه وما أروعه.

إنه نصر- والنصر جميل محبوب-، ومع كونه كذلك في ذاته فإنه ازداد جمالا وروعة وحلاوة وقيمة وعزة بأنه منه.

ثم لّما وصفه بالحسن: ﴿بَلَآءً حَسَنًا﴾ عَلِمْنا أنه بلغ الكمال وغاية الجمال.

فما أسعد المجاهدين بهذا النصر والوهب والعطاء "منه" سبحانه جل وعز.

اللهم إنا نسألك أن تُبْلِيَنا- كما أبليتهم- بلاء منك حسناً.. وَهْباً منك ونعمة منك ورحمة منك..

إنك سبحانك قريب مجيب..



قوله تعالى: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾

(الفتح 18)

أن يعلم الله ما في قلبك فيكافئك عليه: نعمة تستحق الفرح؛ لا بالنعمة ذاتها وإنما بالمنعم القريب الودود، الذي يحبك ويعتني بك أيها العبد المحظوظ بمولاه.

طيب؛

ما الذي علمه الله في قلوبهم؟

علم صدقهم إياه، وحبهم له، وتوكلهم عليه، ورغبتهم في الجهاد في سبيله، وحرصهم على التضحية لأجل دينه ونبيه ﷺ ودعوته.

ثم إن صلاح القلوب وامتلاءها بالمذكور لا يعود إلا بخير في الدنيا والآخرة؛ ففي الآية أن صلاح القلب:

- يستنزل السكينة؛ وهي سكون القلب لمقتضى الإيمان وللجهاد والتضحية؛ فلا تزلزله شبه الذين لا يوقنون، ولا يؤرقه الحزن على ما ضحى به ولا الخوف من وعيد الأعداء.

ويورث الفتح القريب، بل يصح أن تقول: يقرب الفتح ويختصر الزمن في بلوغ المقاصد من تحرير البلاد وتطهير المقدسات ودحر العدو.

فليجتهد المخلصون في إصلاح القلوب وملئها بالإيمان بالله وحبه والتوكل عليه، فإنه ما ضل الضالون ولا هلك الهلكى إلا بالبعد عنه وإيثار معصيته، فمسخهم الله وأحالهم قروداً آدمية، تعرف المنكر وتنكر المعروف.

فاسأل الله السلامة، واحمده على نعمة القرآن، ثم سبح رباً هادياً ونصيراً.

جاء في آيات فضل الشهداء من سورة آل عمران قوله:

﴿وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾

(آل عمران 170)

لَّما وقفوا على بوارق النعيم، وما أعده لهم الرب الرحيم: تمنوا مثله لإخوانهم الذين ما زالوا في الدنيا ولَّما يلحقوا بهم، وهم على طريقتهم في الحياة: جهاد في سبيل الله ومقاومة لأعداء الله، يدل عليه قوله: ﴿لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾؛ فهم بهم لاحقون، وعلى آثارهم سائرون.

﴿وَيَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ يطلبون البُشرى بشهادة إخوانهم، ويُسرُّون بهم.

يا قوم ..

إن الشهداء عند ربهم ينتظرون الأخبار السارة، ويترقبون البشارة.

أتدرون أي بشارة وأخبارٍ سارّة؟

إنها بشارة الملائكةِ بأن أحد أحبابهم قد حظيَ بالشهادة، وهو على وشك اللحاق بهم؛ ليأنسوا برحلة في الجنة لا تشبهها رحلات الدنيا، فالشهداء- كما في الحديث- في حواصل طير خُضرٍ تسرح من الجنة حيث شاءت-، نسأل الله من فضله.



وقوله: ﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ مبين لمضمون الاستبشار:

- إنه لا شيء مما هو قادمٌ عليهم يقتضي خوفهم، فقد انتهى زمن الخوف والحذر من رصد الأعداء وعيون الرقباء.

- ولا شيء مما قد تركوه وراءهم في الدنيا يستحق الحزن؛ فقد عاينوا أن تلك الدنيا التي يتكادم الناس عليها تكادم الحمر: حقيرة لا قيمة لأعظم مُتَعِها فضلاً عما فيها من منغِّصاتٍ كثيرةٍ وأسقام وفيرة.

لقد رأوا إكرام الله لهم وحفاوة الملائكة بهم، وعرفوا مكانتهم عنده سبحانه؛ فزالت عن أرواحهم المخاوفُ والأحزان كلها، ولمَّا رأوا ما لا يوصف بالكلمات من النعيم تمنوه لإخوتهم وأحبابهم.

وحلَّ السعدُ والأُنسُ والاجتماعُ بالأحباب، وعلى رأسهم النبي المصطفى والحبيب المجتبى ﷺ..

اللهم فأنعم علينا بصحبته في الجنة وصحبتهم، وارزقنا الشهادة، وأذِقْنا طعم الإكرام..



سنة الابتلاء لا تتخلف، وهي فرصة لتألُّقِ الإيمان

قوله تعالى: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ﴾

(محمد 31)

آية رعيبة المعنى؛ من حقها أن ترتجف لها قلوب المؤمنين.

يذكُر الله تعالى فيها قاعدة مهمة من قواعد الوصول إليه:

إن الإيمان ليس كلمة تقال، ولا أنشودة تطرب لها الآذان؛ بل ولا عبادة سهلة في خلوة تنتشي فيها النفس ويطيب فيها الأُنس.

إنه لا نجاة لامرئ من الابتلاء الذي يمحِّص الدعاوى، ويميِّز الزيوف، ويَثبُتُ به الإيمان.

ابتدأت الآية بإعلامهم بذلك إعلاماً مشحوناً بالتأكيدات: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ﴾ بلام القسم ونون التوكيد الثقيلة؛ تهيئة للنفوس وبعثاً لها على الاستعداد ورصد الفرصة.

و"حتى" تعليل لهذا الابتلاء الذي يبتلي الله تعالى به عباده، فالغرض منه:

ظهور علم الله بالمجاهدين والصابرين وأخبار الناس وأحوالهم وحركات قلوبهم في تعاطيهم مع الابتلاء الممحِّص.

والسؤال:

كيف يبلونا الله ليعلم المجاهدين والصابرين؟ وما هي الصورة العملية لهذا الاختبار؟

قد تتعدد صور ذلك وتجلياته، ومن أمثلته في واقعنا:

- أن تُنتهك المقدسات ويُهان الدين.
- وأن يُظلم المظلومون من المؤمنين أمام أعيننا.
- ويُبتلَون بعدوٍّ مجرم؛ فيتصدى للعدو منهم فرقةٌ تبيع النفوس والأموال لله؛ فيظهر ما كان في علم الله من أنهم المجاهدون، ويصبرون على لأواء القتال.
- ويصبر آخرون- لا يتاح لهم مباشَرةُ القتال- على الثوابت، ويصمدون ويستعينون بالله على احتمال الأذى الشديد؛ فيظهر ما كان في علم الله من أنهم الصابرون.
- ونُبتلى نحن بوجوب نصرة المجاهدين وإغاثة الصابرين:

فمَن خذلهم لم يكن ممن علم الله أنه من المجاهدين ولا من الصابرين، ومن نصرهم وأغاثهم لَحِق بهم، وشاركهم الأجر؛ فضمَّهم جميعاً رضوان الله الرحيم.

وفي قوله: ﴿وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ﴾ إشعارٌ بأن تفاصيل التفاصيل من الكلمات والمواقف والمشاعر موضوعة تحت مفرزة الحساب الرباني، منظورة في عالم التقدير الإلهي الدقيق.

وإذا جاء الابتلاء صار لزاماً على المؤمن أن يتخذ خطوة في الوقت المتاح؛ فإنه إما أن يكون من المجاهدين والصابرين، أو يكون قد خذل نفسه ودينه وإخوته وفاته وقت الأداء في الابتلاء.

ولْيعلم المرء أن البلاء إذا جاء فإنه لا يؤذَّن في أذنه أن ابتلاءك قد حان.
وإنما يجيء البلاء على صورة وجوب يلحق به وحقٍّ يعلق بذمته.

ويتوجه عليه أن يُجوز جسر الابتلاء وأن يؤدي حق الله فيه؛ فلا تشغلنك الأمانيُّ عن القيام بأمر الله إذا جاء، ولا يهلكنك التسويف بانقضاء الوقت وفوات فرصة النجاة.



المؤمنون يستمدون من الله، ومن استمدَّ منه وتوكل عليه فما خاب!

في قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ٧٦﴾(النساء 76).

الفريقان المتقابلان- الذين آمنوا والذين كفروا-يستمد كلٌّ منهما مِن ولِيِّه ويستنصر به ويقاتل لأجله.

فالذين آمنوا يقاتلون لأجل الله، والذين كفروا يقاتلون لأجل شيطانهم الطاغوت.

من استمدَّ من الله أَمدَّه، ومن استنصر به نصره، لا عجب؛ فالله القوي العزيز الفعال لما يريد لا يتخلى عن أوليائه ولا يكِلُهم إلى أعدائهم- حاشاه-.

ومن استمدَّ من الشيطان واستنصَر به خاب وخُذِل، أما خيبته فلِمَا ذكرتْه الآية في فاصلتها من أن كيد الشيطان كان ضعيفاً.

وأما خُذلانُه فلِمَا جاء في سورة الحشر من قول الله:

﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦﴾(الحشر 16).

إن الشيطان ضعيف وكيدَه ضعيف؛ وإن بدا لوهلة خطيراً محكماً، ومع ضعفه فإن الخبيث يتخلى عن أوليائه؛ لأنه في الحقيقة عدو لهم لا ولي.

أليس هو الذي أقسم أن ينتقم من ذرية آدم بإضلالهم عن طريق الله؟

فالحاصل أن ولايته ليست ولاية حقيقية، بخلاف ولاية الله لعباده المؤمنين.

ولَّما أمر الله تعالى أولياءه بقتال أعدائه سماهم أولياء الشيطان:

﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ﴾، وإنما سماهم بذلك ليعلل سبب قتالهم، فإن هناك منهجين في هذه الأرض: منهج الله ومنهج الشيطان..

وهما منهجان متضادان لا يلتقيان ولا يتقاربان ولا يتعايشان.

ولَّما كانا كذلك كان لا بدَّ من اصطدامهما، فقتالك لأولياء الشيطان قتالٌ لمنهجه وانتصارٌ لمنهج الله، وزجٌّ لنفسك بين أولياء الله؛ الذين لا يخذلهم الله.

ثم إنه لَّما أراد تجريئهم على ذلك أعلمهم بضعف كيد الشيطان:

﴿إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ٧٦﴾.

وصار المفهوم:

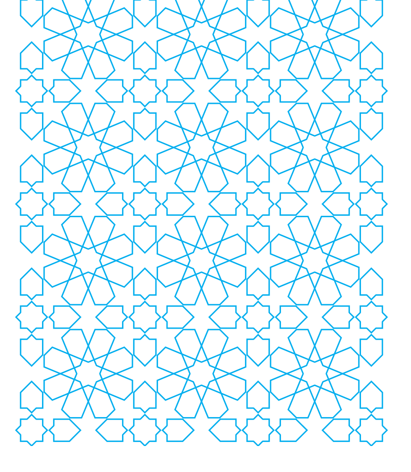
الشيطان يكيد لأوليائه، وكيدُه ضعيف.

والله يكيد لأوليائه، وهو فعال لما يريد، فشتان ما بين الوليين.

ومعركة طوفان الأقصى؛ استجاب فيها الذين آمنوا الذين يقاتلون في سبيل الله لأمر الله في قتال أولياء الشيطان.

وبدا كيد الشيطان لأوليائه لوهلة خطيراً مخيفاً، لكن سرعان ما بطل الكيد وانكشف ضعفه.

وهاهم أولياء الشيطان يغرقون في رمال غزَّة ويندحرون أمام هجمات أولياء الله الذين آمنوا به واستجابوا لأمره؛ فكيف لا ينصرهم ويكيد لهم؟

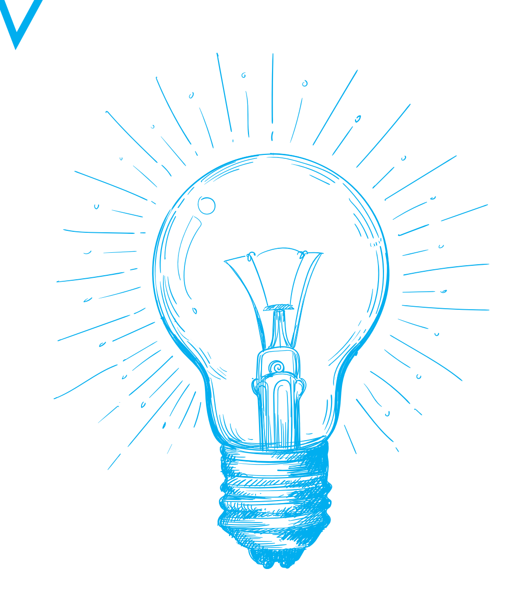


ثانياً:

البنية الفكـــــــرية

والنفسية الجهادية

الفهم عنصر أساسي لازم البناء للسير في الطريق؛ فإنه يقي ضلال الأهداف، وانحراف البوصلة، والهدر خارج إطار المعركة.



ثانياً: البنية الفكرية والنفسية الجهادية

وضوح البوصلة الفكرية وانضباطُ السير في الطريق ضمانُ الوصول؛ إذ العوائق والحواجب والمُضلات كثيرة متنوِّعة، وكلما اتّضحت المعالم وجدَّ السائر السير ومضى نحو الأهداف: قلَّ الهدر والتكدُّر لكل عارض، وكان ذلك أعونَ على بلوغ مراد الله وتحقيق مقاصد تشريعه لهذه الشعيرة العظيمة من شعائر الإسلام.

ينبغي أن يفهم المجاهد مقاصد الجهاد، وأن يجيب بوضوح على سؤال: لماذا نواجه العدو؟ ولماذا نقاوم الاحتلال؟

وأن يعرف ماذا ينتظره في طريق التحرير هذا، وماذا تخسر الأمة إذا تركت الجهاد والمقاومة، وأن يُدرك تمام الإدراك أن تكلفة الصبر على الذل وترك المقاومة والجهاد هي أضعاف ما نقدمه إذا احتملنا تبعاته وصبرنا على استحقاقاته!

وكذلك ما يتعلق بالبِنية النفسية للمسلم المجاهد، وما ينبغي أن يتحلَّى به ويحرص عليه من سمات وطبائع وواردات ترد على قلبه وتنعكس على نفسه جرَّاء الأحداث ومفاجآت الطريق.



في قوله تعالى:

﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ۝١٤﴾(التوبة ١٤).

آية صريحة في سورة التوبة يأمر الله فيها المؤمنين بالقتال، ويبين ما يترتب على القتال من فوائد يجريها الله على المؤمنين.

﴿قَٰتِلُوهُمْ﴾، فإن تقاتلوهم:

- ﴿يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾:

وإجراؤه عذابَه سبحانه لأعدائه بأيدي المؤمنين نعمةٌ على المؤمنين وتشريف لهم بجعلهم ستار قدر الله، وإسعادٌ لهم بتمكينهم من رقاب أعدائهم، كما قال في سورة الأنفال: ﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا﴾(الأنفال ١٧).

- ﴿وَيُخْزِهِمْ﴾:

بعد تكبرهم على الله وعلى دينه وعلى المؤمنين، وحالةُ الخزيِ تليقُ بأولئك الطغاة المجرمين، وكم نتوق كل نفسٍ سويَّةٍ إلى رؤيتهم وقد أخزاهم الله وجعلهم في الأذلين؟.



﴿وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ﴾:

فلكم بذلك مجد الدنيا وشرفها والعزة بين الأمم فيها، ونصُركم نصٌر لدينه وإعزاز لمنهجه وتحقيق لموعودك، فله الحمد.

﴿وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ﴾:

والتعبير بالشفاء عجيب حقاً!!

فترْك الجهاد يورثُ مرَضاً لا دواء له سوى الجهاد.

إنه مرض الذلة والضعف والتأخر، وفقدانِ السيادة والاحترام في الأرض، ثم انتهابِ العدوِّ للثروات، وسفكه للدماء... ولا دواء لهذا الداء إلا بممارسة الجهاد ولجم الأعداء.

وقد والله لمسنا ذلك لما تركت الأمة الجهاد، وتذوقنا الدواء لما استأنفت الطائفة المباركة جهادها ضد المحتل المجرم.

وعسى الله أن يتم علينا الشفاء التام الذي لا يغادر سقماً.

وينعم علينا بتحرير البلاد وتطهير المقدسات، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

وعجيب التعقيب على هذه الجملة بقوله سبحانه:

﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾(التوبة ١٥)، وحريٌّ أن نقف معه وقفة:

نبِّه أولاً أن الجملة ليست معطوفاً على المذكورات السابقة الواردة في آثار الجهاد وثمراته؛ من تعذيب المجرمين بأيدي المؤمنين وإخزائهم ونصر المؤمنين عليهم وشفاء صدورهم، وإنما هي مستأنفة، فتوبة الله على من يشاء ليست في جواب الأمر: ﴿قَٰتِلُوهُمۡ﴾، وليست من الثمرات المنظورة للجهاد في سبيل الله، لكنها لاحقة له من فضل الله.

من الذين يتوب الله عليهم بعد قتال المؤمنين في سبيل الله؟

يتوب سبحانه على من يشاء من أصناف خلْقه؛ فقد:

- يتوب على بعض الكفار المهزومين.
- ويتوب على بعض المسلمين المقصِّرين والمتخاذلين.
- ويتوب على بعض من لا علاقة له مباشرة بالحرب ممن يرقبون المشهد.

نعم إذاً؛

هذا تعليل ما رأيناه من انبهار شديد بالإيمان الذي يحمله الغزيون، وبالقرآن الذي تربَّوا عليه.

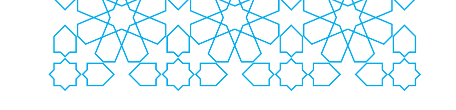


لقد شاهد العالَم مواقف عجيبة من الغزيين المصابين والفاقدين أحبَّتهم في أحداث معركة الطوفان؛ رأوهم وهم يحمدون الله على ما أصابهم، ويجددون ولاءهم للمجاهدين، ويطلبون منهم المُضيَّ فيما مقاومة المحتلِّ وإذلاله.

رأوا أحدَهم وقد فارقت بُنيَّتُه الرضيعةُ حياتها بين أيدي الأطباء، فما لبث أن رفع جسدها الذابل إلى السماء وقال: "خذ من دمائنا يا ربُّ حتى ترضى، أرضيت يا رب"؟.

لمّا شاهدوا هذا وأمثاله مما لا عهد للبشر به في غير عالم الإيمان؛ تساءلوا عن السبب وبحثوا عن القوة النفسية الهائلة في صدورهم، فأُرشِدوا إلى القرآن، فلما قرأوه وقد تاب الله عليهم: تابوا وأنابوا وآمنوا بمثل ما آمن به المسلمون، والحمد لله على عظيم نعمه.

فهذا تأويل قوله تعالى: ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ في هذا الموضع القرآني العجيب.



قول الله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾(البقرة ١٩٥).

الآية مسبوقة بقوله: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾(البقرة ١٩٣)، وقد صُدِّرت بالأمر بالنفقة في الجهاد في سبيل الله: ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

والمقصود بالإنفاق في سبيل الله: الإنفاق على الجهاد في سبيل الله، وتجهيز المجاهدين بما يلزمهم لخوض معركة الإسلام.

وهذا النوع من النفقة من أعظم أنواع النفقة في الإسلام وأعظمها أجراً، وأحب أن أنبه على فائدة تفسيرية مهمة:

من المعلوم من نصوص الشرع أن الحسنة بعشر أمثالها، ومن الطبيعي إذًا أن تكون النفقة بعشر أمثالها كذلك، لكننا نقرأ في سورة البقرة قول الله: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾البقرة [٢٦١]، ومفاده: أن النفقة هنا بسبعمائة ضعف، والله يُضاعف من بعد ذلك لمن يشاء؟.

قرأت في تفسير القرطبي ما يبيِّن سر ذلك:

إن هذه النفقة المذكورة في آية السنبلات السبع ليست أي نفقة؛ وإنما هي النفقة في الجهاد في سبيل الله.

إنها النفقة التي يجدُر بالمؤمن أن يخصها بخير أمواله وأحبها إليه؛ مغتنماً فرصة تحصيل الأجر والإسهام في بناء الأمة والذبِّ عن مقدساتها ودماء أبنائها وبلادهم وأعراضهم.

ثم جاء قوله:

﴿وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ﴾؛ فدلَّ- كما جاء في الروايات الصحيحة- أنه أراد بالتهلكة: تركَ الجهادِ والرغبةَ عن النفقةِ فيه.

وقد روى الترمذيُّ وغيرُه رواية لذيذة في حوار ميدانيٍّ في معنى الآية عن ابن عمران التجيبي قال: كنا بمدينة الروم، فأخرجوا إلينا صفا عظيماً من الروم، فخرج إليهم من المسلمين مثلهم أو أكثر... فحمل رجل من المسلمين على صف الروم حتى دخل فيهم، فصاح الناس وقالوا: سبحان الله يلقي بيده إلى التهلكة.

فقام أبو أيوب فقال: يا أيها الناس إنكم لتتأولون هذه الآية هذا التأويل. وإنما أنزلت هذ الآية فينا- معشر الأنصار- لما أعزَّ الله الإسلامَ وكثُر ناصروه، فقال بعضنا لبعض سرّاً دون رسول الله ﷺ: إن أموالنا قد ضاعت، وإن الله قد أعز الإسلام وكثر ناصروه، فلو أقمنا في أموالنا فأصلحنا ما ضاع منها! فأنزل الله تعالى على نبيه يرد علينا ما قلنا: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الآية، وكانت التهلكة: الإقامة على الأموال وإصلاحها وتركنا الغزو، فما زال أبو أيوب شاخصاً في سبيل الله حتى دُفن بأرض الروم.

وكل ذلك- من السياق والروايات- دالٌّ على أن المراد به التحذيرُ من التوقُّف عن ممارسة أعمال الجهاد ومجالدة الأعداء، لا ما فهمه بعضهم من أنها نهي عن الشجاعة فيه والإقدام عليه.

والباء في قوله: ﴿بِأَيۡدِيكُمۡ﴾ دليلٌ على محذوفٍ تقديرُه: ولا تلقوا أنفسكم بأيديكم إلى التهلكة؛ على ما ذهب إليه المحققون.

والتهلكة: "تفعُلة"؛ اسم مصدر من "هلك"، ولعل في اختيار هذا الوزن الغريب النادر بضم عين الفعل "تهلُكة": إشعاراً بأنها هلَكة تامة لا تشبه سائر ما يهلِك فيه الناس.

إن ترْك الجهاد والرغبة عن الاعتناءِ به والنفقةِ عليه سببٌ مباشرٌ لهلَكَة الأمةِ بالمعنيين الحقيقيِّ والمجازي:

- أما الحقيقيُّ فهو مسبب عن المجازي، وبيانه:

أنه استقرَّ في عُرف العالَمَ أن الأمة المستعدَّة للقتال يهابُها الناس، ولا يتجرأ أحدٌ على النيل من حقها والاستعلاء عليها، وأن الأمة المأَمونة البأس، التي عرَف الناس تَرْكَها الدفاعَ عن حقوقها تجرؤوا عليها واستذلوها وغمطوها، وكان ذلك سبباً لقتالها وقتل أبنائها وتشريدهم والتسلط على أرزاقهم.

وإنه قد استقر كذلك عند فلاسفة السياسة أن أفضل طريقة لبسط السلام أن يحصل الردع للأعداء، وأن تظهر القوة المتحفزة الزاجرة للعدو عن الاقتراب، ولا وسيلة أخرى.

وقد رأينا ذلك في التاريخ والواقع..

الأمة التي تفهم هذا الدرس وتجعله سياسة لها: تعيش كما يليق بها أن تعيش! والأمة التي تصُّر على الغفلةِ عنه جُبناً وتخاذلاً عن أداء ضريبة الكرامة لن تعيش أصلاً بعد أن تذوق مرارة الذلِّ والفقر والتهميش.



ولمثل هذا المعنى جاء قول الله عز وجل: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ٦٠﴾(الأنفال ٦٠).



الله ينصر دينه، نصرُكم له استنقاذ أنفسكم من عذابه

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾(التوبة ٤٠)

قاعدة أخرى من قواعد التصوُّر الإسلامي للجهاد، لا ينبغي أن تغيب كما لا ينبغي أن تغيب القواعد الأخرى:

النصر ليس متوقفاً على وقوفكم معه ولا على نصرتكم إياه.

الله هو الذي ينصره؛ وإن خذلتموه.

الله هو الذي يسنده؛ وإن تركتموه.

الله لا يتخلى عنه؛ وهو الذي حّمله رسالته وأمره بالجهاد في سبيله.

وإن تنصروه فإنما تستنقذون أنفسكم من عذاب الله، وتفرّون من الله إلى الله؛ بتنفيذ أمره والمسارعة إلى طاعته.

أما الله؛ فهو ناصرٌ رسولَه وممدٌّ إياه بما شاء من جند السماء والأرض، وانتصاره كائن بكم أو كائنٌ دونكم.

وكفى به سبحانه ولياً وكفى به نصيراً..

وحريٌّ أن يُنتبه إلى أن الآية جاءت بعد التهديد الشديد على ترك نُصرته ليُعلَم أن دفعهم إلى نُصرته وحثهم عليها لأجلهم هم لا لأجله هو؛ فإنه منصور مؤيَّد، تأمل: ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾(التوبة 39)، وفي الآية:

- أن ترك النُّصرة كبيرة من الكبائر، بدليل الوعيد بالعذاب الأليم.
- والعذاب الأليم شامل لعذابي الدنيا والآخرة، وعذاب الآخرة معروف، أما عذاب الدنيا فبالذلة التي تُكتب على تاركي الجهاد، وبسلب كرامتهم بين الأمم واحترامهم وفقدانهم لاحترامهم وقرارهم وثرواتهم.
- وفيها: الوعيد بالاستبدال: ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾: سيذهب الله بكم وسيهلككم بوجه من وجوه الإهلاك، ويأتي بقوم آخرين لن يكونوا أمثالكم في التلكؤ عن القيام بأمر الله والنكوص عن نصرة رسوله ﷺ ودينه.

والله غالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.



تحصيل النصر عمل الله، وعمل المؤمن: السعيُ فيما أمر الله

قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ۝٧٧﴾

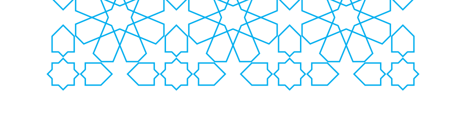
(غافر 77)

ينبغي أن يستقرَّ في قلب المؤمن أنه ليس مكلفاً بتحصيل النصر.

نعم؛ هو مكلَّف بالسير في طريق النصر، مكلَّف بالقيام بما أمره الله تعالى به من مجالدة الكفرة ومراغمة الفجرة.

- قد ينتهي ذلك إلى النصر الذي يُجرِيه الله تعالى على يد العبد السائر في الطريق؛ فيسعده به.
- وقد يقضي الله بأن يموت عبدُه فيها دون الوصول، ثم يكون الوصول في اللحظة التي تقتضيها الحكمة الربانية وتحكم بها المشيئة الإلهية.

فالأمر أمره، والدين دينه، والكل عباده؛ يقضي بينهم بما يشاء ويحكم بما يريد، ثم إنهم جميعاً راجعون إليه محضَرون بين يديه.



وهذه الآية تُقَعِّد قاعدة مهمةً في بناء فكر الجهاد وفلسفة العمل للإسلام؛ ذلك أن كثيراً من العاملين للإسلام يشغلُهم انتظار لحظة النصر، ولا تلتفت قلوبهم عن ملاحظة حصوله على الأرض؛ بشكلٍ مبالغٍ فيه قد يؤدي إلى إحباطات شديدة وارتدادات عن الطريق وفقدٍ للثقة بالمنهج في حال فشلت بعض محطاته وتجاربه الجزئية هنا وهناك.

كأنه يقول في الآية لنبيه ولكلِّ من يَليه في ولاية أمر المؤمنين العامة أو الخاصة:

لا تنشغل بشغلنا نحن، وانشغل بما أمرناك به..

سِرْ إلى الله لتصل إليه سبحانه، لا لتحصِّل النصر ولا لتُطْلِع الفجر..

وكما أن الفجر قادم لا محالة في الوقت الذي قدَّره فالنصُر جاءٍ في اللحظة التي تقتضيها حكمته وتفصل فيها مشيئته.

فله الحمد في الأولى والآخرة، وهو السميع العليم..

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ (محمد ٤).

قاعدة قرآنية لا يستغني عنها مؤمنٌ في فهمه للصراع مع الباطل؛ ذلك أن الله أراد- لحكمة- أن يتقرَّب إليه عبادُه المتقون بألوان من العبادات لا تحصل إلا بصراع بين الحق والباطل.

أراد أن يتقرَّب إليه المجاهدون بالصبر على لأواء الحرب ومجالدة العدو واحتمال الأذى..

أراد من محبيه أن يبذلوا دماءهم لأجله، وأن يضحوا بأرواحهم وأزواجهم وأولادهم في سبيله..

أراد رؤية صمودهم أمام المغريات وأمام المخاطر المهلكات؛ يحْدُوهم التزامُ أمره، ويقوِّي قلوبَهم مقدارُ ما فيها من تعظيمه وإجلاله.

شاء الله أن يجعل للباطل جنداً وخدَماً، واختار لدينه جندَه المرابطين وعبادَه الصالحين، فاصطدم المنهجان، واحتدمت المعركة وحمي الوطيس.

ظهرتْ أنواعٌ من العبوديةِ العاليةِ التي لا تستطيعها حتى الملائكة في تجليات عبوديتها لله.

فلنستدعِ المَشْهدَ الأول في القرآن لقصة خلق آدم عليه السلام، قول الله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٣٠﴾(البقرة ٣٠).

تقول الملائكة: إنه إن كان الأمر أمر عبادة فإننا نقوم بها على وجه لا مزيد عليه: ﴿وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، فلماذا تستخلف- سبحانك- خلْقاً يفسد ويسفك الدماء؟.

أجابهم- جلَّ وعزَّ- بقوله: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾، فأحال على علمه وحكمته.

إن هناك عبادات تكون من هذا المخلوق لا تستطيعها الملائكة مع سموِّ مكانتها في العبودية.

وهذه العبادات أراد الله سبحانه أن يُعبَد بها -لحكمة يعلمها- لا تستطيع الملائكة بطبيعة خلقها أن تؤديها، ولا يمكن أن تؤدى إلا في ساحة الصراع مع الباطل، وفي أتون اشتباك جند الله بجند الشيطان.

هل سمعتم بمَلَكٍ يُستشهد في سبيل الله ويسيل دمه في مجالدة عدو الله؟

أو هل مر بكم قصة ملَك فقدَ عائلته وضحَّى بالولد فبقي صامداً كالجبل الأشم في المعركة المقدسة؟

أو آخر زُجَّ به في غيابات السجون لكلمة حق قالها، أو ضُيِّق عليه في رزقه لأجل عمله مع الله.

ابتلى الله المؤمنين بالكافرين لتظهر تلك الألوان من العبودية، وابتلى الكافرين بالمؤمنين ليرتدعوا ويتوبوا أو يهلكوا بالإصرار على معاداة أولياء الله.

فاصبروا يا أهل القرآن على ما ابتُلِيتم به..
وتألَّقوا في تقديم القرابين العِظام، وسابقوا إلى نيل الرضوان ..



جاء قوله تعالى:

﴿وَلَتَسۡمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَذٗى كَثِيرٗاۚ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٨٦﴾(آل عمران ١٨٦)، في أواخر سورة آل عمران التي عرضتْ لمشاهد احتدام المعركة وارتطام السيوف، وفي الآية خبرٌ مؤكَّد من الله تعالى للمؤمنين يُعْلِمهم بأن هناك حرباً أخرى بعد حرب السيف التي يُتَّخَذ فيها الشهداء.

تلك حربُ الوعي التي يشنُّها جندُ الشيطان المسلحون بالكلمات الخبيثة والأفكار الجاهلية ليحاولوا هزيمة الحق في عقول الجماهير؛ وإن عجزت دباباتهم عن اقتحام قلاعه المباركة.

حرب تهدف إلى تشويه جند الله، وتنفير الجمهور عنهم، وبث الأراجيف والإشاعات حول منطلقاتهم ومآلاتهم.

وإنما يُعلِم الله المؤمنين بذلك: ﴿وَلَتَسۡمَعُنَّ﴾ مؤَكَّداً باللام والنون التوكيد الثقيلة مع وصفه بأنه كثير: ﴿أَذٗى كَثِيرٗا﴾:

1. ليوطنوا أنفسهم على سماعه دون أن يزلزلهم مقدار ما فيه من البهتان، ولا يحبِطَهم مقدارُ ما فيه من حقد بني جلدتهم ومنافقي ملتهم. فإن المرء متى علِم بطبيعة المعركة ووطَّن نفسه على احتمال الأذى لم يُفجَع به فلم يتأثَّر ولم يضعف.

2. وليستعدوا لمواجهته ويتهيأوا لها، وإنما يتولاها منهم جند الله المرابطون على ثغور الفكر والعلم والتربية، فإن لكل معركة جنوداً.

إنه حقاً أذى "كثير" لا يقل خطراً ولا شراسة عن القصف الذي يمارسه العدو في الميدان، يستهدف رأس الإسلام تماماً كما يستهدفها القصف والحصار والنار.

وكما أن أسياد معركة السيف العسكرُ الأبطال؛ فإن أبطال معركة الوعي العلماء والإعلاميون والمعلمون والمثقفون والأدباء والشعراء ومن له كلمة وحضور مؤثِّر في الإعلام والتدريس والأدب ووسائل التواصل الاجتماعي وغيرها.

وجندها الأبطال- وإن لم تُسفَك دماؤهم في مواجهة الاحتلال- فإنهم يبذلون علمهم ووقتهم ومالهم، ويعرِّضون أنفسهم لعداء الباطل وسفهائه، وتضييق الطغاة وأذيتهم.. وكم دفع هؤلاء الجند المرابطون حياتهم وأموالهم وأعراضهم مقابل كلماتهم.

بارك الله في دماء الشهداء، وبارك الله في مداد العلماء.



في قول الله تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ ٧٣﴾(الأنفال ٧٣).

تحديدٌ لأساس مهم من أسس بناء الصف المؤمن المتراصّ، وعقيدةٍ لها انعكاسها الاجتماعي في تراصّ صفّ المجتمع القادر على مواجهة أخطار الخارج وتكتلاته الشرسة.

فالباطل يجمعه هدف واحد ويؤلِّف بين نسيجه المتنافر مقصد وحيد؛ هو العداء للمسلمين والرغبة في القضاء على بيضة الإسلام، وعلى هذا الهدف الخبيث يجتمعون، ويمكنهم أن يتناسَوا لأجله خلافاتهم العميقة، ومصالحهم المتفرقة المتضادة.

ومواجهة مثل هذا الصفِّ تستلزم اصطفافاً موازياً وتراصّاً متماسكاً وعملاً مؤسسياً يحطُم العدوَّ المجرم ويناطحه.



في مثل هذا المعنى وحثاً على هذا النوع من التماسك جاء قول الله سبحانه في سورة الصف: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ ۝٤﴾ (الصف ٤).

واليوم نرى الفجار يتداعون للمشاركة في قتل أطفال المسلمين، ويسخِّرون- بلا خجل- تكنولوجيا الحرب الشريرة في خــدمة الاحتلال؛ بل يتدفَّق المرتزِقة منهم للمشاركة الفعلية في جيش الاحتلال لحرب إخواننا المجاهدين، ويستعرضون جرائمهم متبجحين في قتل الرُّضَّع وتفجير البيوت والمساجد والجامعات والمستشفيات.

تدخُّل بعض الدول الغربية بمختلف أشكال التدخل، ومشاركةُ جنود غربيين في الحرب على غزة؛ يجعل من الدعوة لفتح باب التطوع لالتحاق أبناء الأمة بإخوانهم في غزة لمواجهة التكتل الصهيوغربي: أمراً ضرورياً من جهة، وطبيعياً جداً من جهة أخرى.

كيف يكون مقبولاً أن يشارك المرتزِقة و"زعران" العالمِ الجيشَ الصهيونيَّ في سفك دماء أطفالنا، ولا يكون مقبولاً أن يتنادى المسلمون لمواجهتهم ورد عدوانهم؟.

إن حكم الله- الذي لا يحتاج إلى بيان-:

وجوب أن تُشارك الأمة كلها في نصرة أهل غزة، وأن تتحرك- دولاً وأحزاباً ومجموعات وأفراداً- لردع القوى المتحزِّبة على إخوتنا وردِّها، وأن يصطفَّ المؤمنون للقتال في سبيل الله صفاً كأنهم بنيان مرصـــــوص، تجمعهم العقيدة، وتشدُّ بنيانهم الرحمة التي جعلها الله تعالى لُحمة بينهم:

﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٠﴾.

(الحجرات ١٠)

وقد جاء في وصفهـــــم مع إخـــوتهم:

﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ﴾(الفتح ٢٩)، فيالله كيف جمع القوم بين الشدة والرحمة، وكيف توازنت قلوبهم بميزان القرآن.



قول الله تعالى:

﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٦﴾(آل عمران ١٤٦).

قد اختُلف في معنى ﴿رِبِّيُّونَ﴾، سنختار قولاً يناسب السياق أكثر فيما نرى.

يقول:

عادة الربانيين من عباد الله أنهم يقاتلون مع الأنبياء ويحتملون ما ينشأ عن احتدام المعركة من استحرار القتل وكثرة الجراح.

ثم إن ذلك قد يورث في بعض النفوس: الوهنَ والضعف والاستكانة؛ وكلها منفية عن أولئك الربانيين المصطَفَين من عباد الله وخيرة جنده وتلاميذ رسله عليهم السلام.

لكن ما الفرق بين الكلمات الثلاث؟

الوهن: ضعف يلحق القلب.

فإياكم–أيها الربانيون –أن تهنَ قلوبكم وتهتز دواخلكم.

والضعف: هو اختلال القوة والقدرة في الجسم.

فإياكم– أيها الربانيون–أن يتسرب الضعف إلى أبدانكم فتختلّ ويقعدكم ذلك عن الجهاد.

والاستكانة: هي إظهار ذلك العجز وذلك الضعف.

فإياكم– أيها الربانيون– أن يلمح العدو منكم ضعفاً أو يبدو عليكم ما يجرئه عليكم أو يشمته بكم.

فهذه إشارة قرآنية توجيهية حقيقة بالتنبه والعناية.

ومن لطائفها:

ترتيبها في الذكر على حسب ترتيبها في الحصول؛ فإنه إذا خارت العزيمة فشلت الأعضاء وجاء الاستسلام، فتبعته المذلة والخضوع للعدو.

عافاكم الله أيها الربانيون من الوهن والضعف والاستكانة، وأدام عليكم التوفيق والعزة والانتصار، وأعانكم على لأواء الطريق.



لا تترك رباطك، والزم خندقك!

قول الله تعالى يأمر نبيه ﷺ : ﴿فَإِذَا فَرَغۡتَ فَٱنصَبۡ ٧﴾ (الشرح ٧).

لا يفتر المؤمن في خضم المعركة وفي طريقه إلى الله ولا يضع سلاحه ولا يستسلم لهوى الراحة ولا لنوازع الدّعة والكسل؛ بل يتابع الطريق، ويكمل المسير.. لا يهدأ ولا يستريح قبل أن يضع رحله في الجنة.

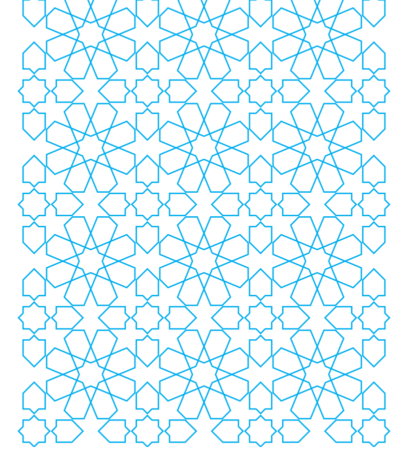
كلما فرغت من مشاركتك في طاعة فانصب واتعب في استقبال طاعة أخرى..

وكلما انتهيت من عمل مقاوم اشرع في التالي..
وكلما ختمتَ برنامجاً لنصرة المسلمين وإغاثتهم فتجهَّز لبرنامج قادم..
وكلما خضت معركة ضد الاحتلال وفرغت منها فاستعد لخوض المعركة التالية..

وكلما فرغت في نهارك من فعالياتك لنصرتها فصفَّ قدميك في صلاة الليل، وأتعب نفسك طارقاً أبواب السماء سائلا الله النصر.

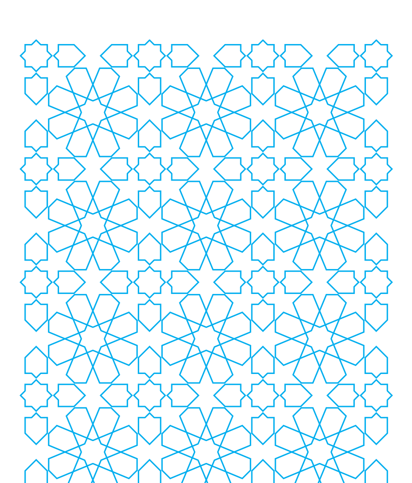


إياك أن تضع سلاحك الذي تخوض به معركتك، إياك أن تضعه قبل أن تطمئن إلى أن المعركة قد انتهت، وأن الابتلاء قد أُغلق.. وقد تعلم أنها لا تنتهي وأنه لا يغلق إلا بدخولك الجنة واستراحتك في بيتك فيها.

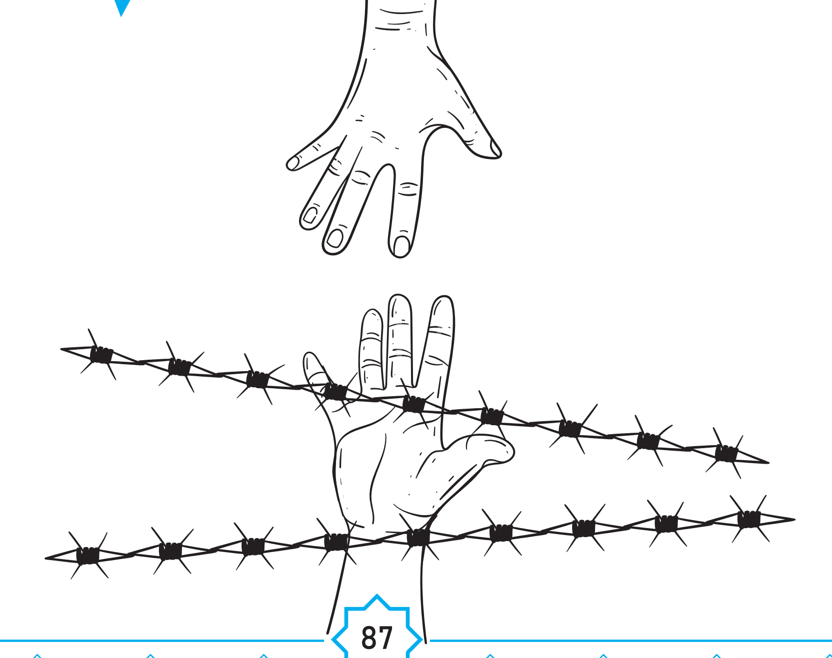


ثالثاً:

مهالك المتخاذلين وخبثهم



قد ناداهم القرآن، وجاءتهم الأدلة، ووقفوا على البراهين، وعرفوا الحق.. لكنهم آثروا الباطل، وغلبت عليهم شقوتهم.



ثالثاً: معالم المتخاذلين وخبثهم

ذكر القرآن الكريم من مواقف المتخاذلين والناكصين ما نحتاج اليوم إلى التفتيش فيه ومطابقته مع الواقع، ومواجهة خطاب "صهاينة العرب والعجم" بما واجههم به القرآن الكريم ووجه النبيَّ ﷺ لمواجهتهم به من الأقوال والأفعال.

هؤلاء المتخاذلون من المنافقين وأذناب المنافقين كانوا شراً مستطيراً عظيم الخطر على القيادة المسلمة والمجتمع المسلم، كانوا أشبه بطعنة من سكين مسموم يمكن- حقاً- أن يقتل الأمة وأن يمزق أحشائها ويسمِّم دمها لو غفلت عنه لحظة أو استهانت بأثره وما يمكن أن يؤول أمرها معه.

جاء القرآن ليبصِّر المؤمنين في أتون المعركة بعدوٍّ قريب وشيك الإضرار؛ جاء يكشف كيده، ويبيِّن خطره، ويُظهر بواعث توجهاته، ويدلُّ على محلِّه، ويرشد إلى طريقة التعاطي معه، بل ويعيِّن أو يكاد شخصه لشدة تفصيل وصفه.

ثم إنهم- في الحقيقة- هم، تغيَّرت الأسماء فحسب، ولم تتغير الأقوال والأفعال والمكايد والأخطار والمواقف والبواعث، وما دام القرآن بيننا فالقرآن سبيلنا إلى طريقة التعامل معهم وحصار آثارهم السلبية وإطفاء نيران مكايدهم المحرقة.

وفي هذا الشطر دروس مختارة من مواضع مختلفة في القرآن نجد فيها ما يعين على فهم ظاهرة "صهاينة العرب" بين ظهرانينا، هؤلاء الذين يوازون المنافقين في العصر النبوي من حيث تشابه الأقوال والمواقف والتقديرات.



حمق المخلفين وغبنهم فيما فرحوا به!

في قول الله تعالى: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾(التوبة ٨١).

خبر والله يقتضي العجب.

فقد فرح الحمقى بما ينبغي أن تذوب النفس عليه كمداً.

فرحوا ﴿بِمَقْعَدِهِمْ﴾، والمقعد هنا مصدر ميمي فيما أرجح؛ كأنه يقول: فرحوا بقعودهم، وفعله الثلاثي: قعد.

وهو معنى رديء يحمل معاني الجبن والكسل والثقل؛ يقابله: قام؛ الدال على الشجاعة والنشاط والمبادرة.

والمخَلَّفون: اسم مفعول، والذي خلَّفهم وراءه: رسول الله ﷺ والمؤمنون، وتخليفهم: ترْكُهم خلفَه.

ويجوز أن تكون نفوسهم الرديئة هي التي خلَّفتهم وحطَّت بهم في هذا الدرْك السافل، فقد أطاعوها فأضاعوها، وهي أمَّارة بالسوء.

والمقصود بالمخلفين في الآية:

أولئك المنافقون ومرضى القلوب وضعاف الإيمان الذين ملأت الدنيا قلوبهم، وعميت عن الآخرة هممهم؛ فلا يعملون لها ولا يضحون لأجلها، ولا يستحضرون أن دنياهم في إدبار وأُخراهم في إقبال.

وفي تسميتهم بالمخلَّفين مع بيان فرحهم بمقعدهم من الزراية عليهم والتعريض بانحطاط عقولهم وهممهم ما لا يخفى.

فلما تسلَّلوا لواذاً عن مصاحبة رسول الله ﷺ في غزْوِهِ، وشعروا أنهم فاتوا لحظة خروج المسلمين إلى لقاء العدوِّ فرحوا فرَحَ المنتصرِ بنصره والرابح بربحه، وابتهجت قلوبهم المريضة بفوات المشاركة في الجهاد .. الخطِرِ في نظرهم.

ولو استقامت أفهامهم وقوي إيمانهم لحزنوا أشد الحزن ولتقطعت قلوبهم حسرة على فوات الأجر المرشِّح للفوز بالجنة والنجاة من النار.

تماماً كما في الصورة المقابلة لأولئك الصادقين الذين صدَقوا الله تعالى في نياتهم: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ۝٩٢﴾

(التوبة 92)

فرقٌ كبير بين الصورتين، وتقابل تامٌّ بينهما:

- صورة الذي فرح بمقعده خلاف رسول الله، وفوات جهاده معه ﷺ.
- وصورة الباكي لعدم قدرته على الالتحاق بركب المجاهدين، الحزين على فوات فرصة الجهاد، المكسور القلب جرَّاء ذلك.

والتعبير ب "رسول الله" في قوله: ﴿خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ للإشارة إلى قبيح فعلهم وحمق صنيعهم؛ بل وشدة كفرهم، إنه رسول الله، ومع ذلك فرحوا بخلافهم له! فما أغباهم.

إن الحزن على فوات المشاركة في الجهاد دأب المؤمنين، والفرحَ لفواتها مسلك المخلفين من المنافقين وأشباه المنافقين.

والذين يرون الجهاد والشهادة مغرماً وخسارة لا خلاق لهم من الدين ولا من الدنيا.

هنيئاً لمن أفسح الله له الإسهام في الجهاد، وهنيئاً لمن بكى حزناً أنْ لم يدركه! ويا خسارة من فاته ذلك وفرح لفواته وآثر الملذات الفانية والشهوات الدنيئة.



ظن السوء!

أنَّب الله تعالى المنافقين الذين ظنوا أن خروج رسول الله وأصحابه لقتال عدوه شديد البأس سيكون نهاية الرسول وأصحابه.

وغفل الحمقى أن هؤلاء في عين الله؛ ترعاهم وتحرسهم.

واستحسنوا الخاطر الشيطاني وزينه الشيطان في قلوبهم، ولعلهم عاشوا أحلام "ما بعد رسول الله" ﷺ.

وسمى الله تعالى ظنهم هذا ظن السوء، وهو:

ظنهم أن يتخلى الله عن نبيه وأصحاب نبيه ويكلهم إلى أعدائهم.

حاشا وكلا.

أيليق ذلك بالله؟.

إن مجرد الظن بأن الله يتخلى عن أوليائه هو ظن سوء يهلك صاحبه، وهو معنى قوله: ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا ۝١٢﴾(الفتح 12).

الله لا يتخلى عن أوليائه، والظن بأنه يتخلى عنهم ظن سوء يهلك صاحبه..

الله الله على كلام الله ووعد الله.



الإعداد علامة الصدق في ظلال قول الملثّم معرضاً بالمتخاذلين الضعفاء: "لا سمح الله"!

﴿ ۞ وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةٗ وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ٤٦ ﴾(التوبة 46)

في هذه الآية من الفوائد العظيمة:

- ما يعرف المرء به حقيقة صدقه مع الله، وفيها مؤشِّرٌ عمليٌّ قدمتْه الآية كمقياس دقيق لمحاكمة الادعاءات.

وفيها كذلك:

مؤشر يعرف الشقيُّ به خذلان الله له وكراهته لقيامه بين يديه.

جاءت الآية في التعقيب على اعتذارات المنافقين المتهافتة، وكذَّبتهم تكذيباً عاماً، وبينت أن كل ما قدَّموه من أعذار لا يعدو أن يكون كذباً يتذرعون به إلى دفع اللوم عنهم واتهامهم بالكفر والنفاق.

فقال:

لو كانوا صادقين في نية الخروج لدلَّتْ حالُهم عليه، ولكان منهم إعدادٌ ينبئ عن صدق نياتهم؛ كما هي عادة البشر:

لو أراد أحدهم أن يخرج إلى سفر لاستعدّ.

فلما لم يكن منهم استعداد أصلاً دلَّ على تبييت نية التخلف عن رسول الله ﷺ وتركِ الخروج معه.

وكذلك الحال فيما نراه من أنفسنا- يا معاشر المحبين للجهاد- ولمَّا يتيسَّر لهم-:

إن ادَّعاء الرغبة في الجهاد والاستعدادِ له لا يعدو أن يكون ادعاءً أجوفَ ما لم يشفعه تفكير مُضْنٍ به، ومداومة على تحديث النفس به، واستعداد عملي له، وانشغال ذهني وإجرائي بشأنه...

نعم؛

إن كان الأمر على هذه الهيئة الجدِّية من الاستعداد فليعلم المرء من نفسه صدقها فيما تدعيه وتطلبُه، وإلا فما أكذب النفس على صاحبها! وما أشد تلبيسها عليه.

وإنه لا سبيل إلى سبر حقائق دعواها إلا بالنظر في مؤشرات صدقها وكذبها. والخطير المقلق لكل ذي قلب أن هذا المؤشر إن لم يدلَّ على الصدق فقد أشَّر على سقوط صاحبه من عين الله وطرد الله له من شرف محراب الجهاد:

﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ﴾.

إن هبوط العزم وسقوط الهمة والتثاقلَ والعجز عن الإقدام على الطاعة لهو علامة على كراهة الله لانبعاث المرء، وإرادةِ صرفه عن معالي الأمور التي تورث الجنة وتبلغ به ذُرى المجد.

وكراهة الله انبعاثَ هؤلاء المنافقين ناتجة عن سوسة فساد في قلوبهم، ودخيلة سوء، وطوية شر، وكذبٍ على الله وعلى الناس في ادعاءٍ باللسان خلا منه القلب.. وهذا ما آل إلى التثاقل عن النفير، والقيد والجبن والكسل.

ولَمَّا وصلوا إلى هذا الدرك السافل لم يعودوا حقيقين بشرف التكليف، وسقطوا عن درجة الاعتبار، فقيل لهم: ﴿ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾.

أي توبيخ هذا أيُّ وتقريع؟

إنهم لا يستحقون مصاحبة الرجال- والرجولة خُلُقٌ لا جنس-.

حريٌّ أن يشاركوا الضعفاء وأصحاب الأعذار قعودَهم عن القيام بالمهمات.

أستحضر وأنا أكتب هذه الكلمات ما قاله أبو عبيدة حفظه الله لَمَّا عرَّض بهم بقوله: "لا سمح الله".

نعم إنهم هؤلاء أنفسهم، لا جعلنا الله منهم.



قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ٣٨﴾(التوبة 38)

نادى الله سبحانه أولئك الذين دخلوا في عهد الإيمان، وقبلوا القيام باستحقاقاته، ناداهم بعنوان إيمانهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، ومن المعلوم أن في استفتاح الخطاب بهذا النداء إشارةً إلى أهميته، واستدعاءً لحضور المؤمنين وتنبيهاً لهم.

﴿مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ﴾، استفهام استنكاري يخالجه شيء من التعجيب من حال المتثاقل إذا دعي إلى النفير في سبيل: أي شيء دهاكم أن تتثاقلوا وقد دعيتم إلى النفير في سبيل الله؟! أي مانع يمنعكم من الاستجابة النشطة لأمر الله؟.

والنفير: حركة إلى الجهاد ونُصرة الله ورسوله، وهي حركة بخفة ونشاط، وعكسها: التثاقل، وهو الخلود إلى الأرض وضعف القدرة على الحركة والبطء في الاستجابة.

وقوله: ﴿ٱثَّاقَلۡتُمۡ﴾ بإدغام التاء بالثاء ليوحي بالمزيد من الثقل، فصوتُ الكلمة وقد التصق اللسان بمخرج الثاء وكأنه قد جمد هناك وثقُل؛ تُسهم في رسم مشهدِ تثاقلهم وبطء حركتهم.

ما الذي وصل بهؤلاء "المؤمنين" إلى هذه الحال من التثاقل عن نصرة الله ورسوله والجهاد في سبيل الله ربِّهم العظيم؟.

الجملة التالية تحمل الجواب، لكن فلنحاول صياغة السياق هنا بأسلوب نستفيد فيه من علوم العصر:
التحليل النفسي لظاهرة التثاقل، أو بعبارة أخرى: "سيكولوجيا (علم نفس) التثاقل": ﴿أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾.

الإشكال عند الكلِّ هو في الرضى بالحياة الدنيا بمختلف أشكال الرضى.ولهذا النص الخطير تنزيلات كثيرة في الواقع، ولنستدعِ نصاً آخر ذا علاقة بالسياق في السورة ذاتها لمزيد تفصيل لهذا الإجمال:



﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٤﴾ (التوبة 24).

إن المحبوبات الكبرى الثمانية في كفة: الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة، والأموال المقترفة، وقد تعبتم في جمعها وتحصيلها، والتجارةُ في ذروة نشاطها، وقد خشيتم كسادها، والمساكن المرضية، وقد سكنت إليها نفوسكم ووجدتم فيها قراركم، كلها مجموعة في كفة؛ كما يوحي استعمال واو الجمع لا "أو" التي قد يُفهم منها أن كلَّ مذكور على حدة لا ينبغي أن يكون أحب؛ لا أن مجموعها كذلك.

الحق أنها لو كانت كلها مجموعة في كفة فالواجب أن لا ترجح على كفة محبة الله ورسوله والجهادي سبيله، على ما يحمله الجهاد من مصاعب ومشاقّ وآلام.

إنها معادلة واضحة حقاً، مستقيمة حقاً، صعبة حقاً؛ إلا على من وفقه الله واصطفاه ليكون من جنده المخلَصين.

إن الحسابات الضيقة والمصالح الشخصية أو المصالح الموهومة هي التي تثقِّل حركة المؤمن وتقيِّد مسيره وتحول دون نفيره نشيطاً للاستجابة لأمر الله.

هذا هو التوصيف، ثم جاءت الجملة الأخيرة لتقدِّم العلاج وقد بُيِّنت العلة: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ٣٨﴾(التوبة 38).

إن تمام اليقين بالآخرة، والتعلَّق بوعد الله للمؤمنين المجاهدين، والاشتياق لدخول الجنة دار رحمة الله ومستقرِّها هو سبيل الوقاية من الإصابة بمرض حب الدنيا والتعلق بها، إذ تلك هي العلاقة بين الحياتين: كلما عظمت إحداهما في قلب المرء كان ذلك على حساب الأخرى ولا ريب.

اللهم نشكو إليك ما بنا من ضعف.



في قول الله تعالى:

﴿فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّاۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾(التوبة 83).

مِن عقوبة الله لمن ساءت سيرته أن يحرمه من الإسهام في أي فعل شريف للمسلمين.

إنهم فوَّتوا فرصة إسناد المسلمين لمّا احتاج المسلمون إسناداً وواجهوا عدوّاً قوياً، تغافلوا عن المشاركة بالمال والنفس.

بخلوا- لعلهم- وآثروا الحياة الدنيا، وطلبوا السلامة جُبناً وكسلاً وشُحّاً، فلما كان منهم ذلك عوقبوا عقوبة تناسب تخاذلهم؛ إنهم قد حُرموا من الخروج مع رسول الله أبداً، ومُنعوا مشاركته في مواجهة أي عدوّ في قادم الأيام.

قد حُرموا من صناعة مجد الدنيا وفلاح الآخرة.. وعوقبوا حقاً عقوبةً شديدة يستحقونها، "فأولى لهم طاعة وقول معروف، فإذا عزم الأمر فلو صدَقوا الله لكان خيرا لهم.

أيها المحرومون...

استيقظوا، فأنتم والله معاقبون.



للإسلام وأهله، وفي السطور القليلة القادمة نماذج أقارن فيها بين منطق القرآن ومنطقهم؛ ليدلَّ ذلك على مدى ضلالهم وبُعدهم عن كتاب الله ومنهاجه الذي تعتنقه هذه الأمة وتستهدي به.

ولنبدأه بتصوِّر موقفهم من أصحاب الأخدود وكيف يمكن أن يعلِّقوا على قصتهم، ثم نستدعي مواقفهم تجاه الواقع.

منطق صهاينة العرب:

ما الذي استفاده الذين حُرِّقوا في قصة أصحاب الأخدود؟ خسروا دنياهم وألقوا بأيديهم إلى التهلكة، وكانوا ضحية تغرير الأنبياء.

منـطق القرآن:

الصمود على المبدأ حتى تلقى الله ثم وراثة جنة النعيم فوز كبير، واقرأ سورة البروج: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡكَبِيرُ ١١﴾(البروج 11).



منطق صهاينة العرب:

نحن ضعفاء، وليس أمامنا إلا استجداء العالم.

منطق القرآن:

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾(آل عمران 139).

منطق صهاينة العرب:

غررت المقاومة بالأمة وأقحمتها في معركة لا تقوى على احتمال أعبائها.

منطق القرآن:

﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾(الأنفال 49).

منطق صهاينة العرب:

المعركة كفيلة بانتهاء المقاومة واجتثاثها، ولننتظر ذلك بفارغ الصبر.

منطق القرآن:

﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٢﴾﴾(الفتح 12).



منطق صهاينة العرب:

لا نقوى على مواجهة المشروع الصهيوغربي؛ فإسرائيل أقوى منا وأكثر أنصاراً.

منطق القرآن:

﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾

(البقرة 249)

منطق صهاينة العرب:

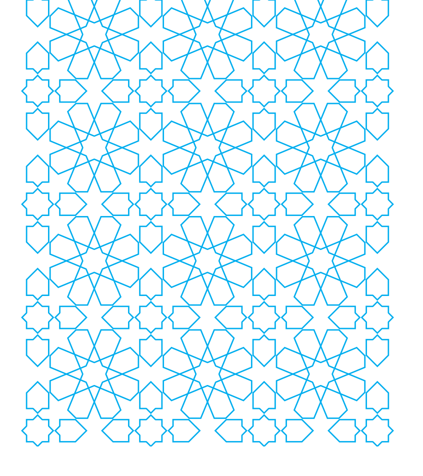
لو أنهم تركوا احتضان المقاومة ما قُتلوا، ولعاشوا برفاهية!

منطق القرآن:

﴿قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٦٨﴾ (آل عمران 168)

﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلۡفِرَارُ إِن فَرَرۡتُم مِّنَ ٱلۡمَوۡتِ أَوِ ٱلۡقَتۡلِ وَإِذٗا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ١٦﴾

(الأحزاب 16)



رابعاً:

في وعود النصر والتمكين

انتصارنا ليس في حيز الممكنات.

بل هو قطعية دينية وحتمية واقعية.. نعمل لننال شرف

أن نكون قدر الله في انتصار دينه وتحقيق وعده.



رابعاً: في وعود النصر والتمكين

أمرنا الله بخوض المعركة ضد الباطل وأهله، وأعلمنا إذا أطعنا أمره وأجبنا دعوته لما يحيينا أن ينصرنا ويمدَّنا بجنود من عنده، ووعدنا أن لا يكِلنا إلى عدونا، وأن يتولانا برحمته وتدبيره وحفظه؛ ومن تولاه الله تعالى فما ضره مخالفة المخالفين ولا خذلان الخاذلين.

وفي معركتنا مع اليهود خاصة أخبرنا بأننا منصورون، وأنهم لا يُنصَرون، أخبرنا بذلك بشكل ريح وواضح لا لبس فيه؛ إنه محكم من محكمات القرآن، الإيمان به شرط لصحة الإيمان رأساً.

والسائر في طريق الله مجاهداً في سبيله صابراً على اللأواء يفتقر إلى بُشريات ربِّه بالنصر، ويستعين بها على مواصلة الطريق.

لا تتعلَّق عينه بتحصيله بالضرورة، وإنما يطمئنه أنه في طريق إن لم يقطف ثمرات جهاده وصبره برؤية نصر الله على يديه؛ فإن أخاه السائر على الدرب سيقطفها، ويلاقي الله على العهد، لم يهدهده الأذى ولم يَضعف سيره عن مواصلة الطريق.

وفي القرآن من البُشريات كثير، نمر منها على بعض الإشارات والإضاءات، ونسأل الله من فضله العظيم.



نور يبدِّد الظلمات، ولا دافع يدفع مراد الله!

يجتمع أعداء الله من كل صوب؛ يجتمعون على كلمة واحدة هي القضاء على الإسلام، ويرمون المجاهدين عن قوس واحدة.

يجتمع الأعداء؛ فيخنقون مجاري الأنفاس، ويسدون الأفق بسدودِ حقدِهم ونَقمتهم؛ مختلفين إلا في قضية القضاء على أهل الإيمان، وسحق الصامدين في وجه مشروع التهويد والتغريب والطغيان.

في وسط كل تلك الظلمة وأمام كل السدود: يشرق على قلب المؤمن قول الله: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ٨﴾ (الصف 8)

قاعدة قرآنية نورانية؛ ما ذكرها مؤمن في ظلمة إلا بددتها، ولا في كربة إلا في نفسه فرجتها، ولا في محنة إلا جاوزت به إلى شواطئ الأمل.

نعم إنهم يريدون إطفاء نور الله وحبسَه وخنقَه، لكن الله يريد شيئاً آخر، ويأبى ما يريدونه:

يأبى لنوره إلا التمام، وإرادتُه سبحانه نافذة، وقدَرُه لا يُغالَب، وحكمه لا يُرَد، كيف وهو الفعال لما يريد؟.

أما كراهتهم لتمام النور فلا تضر النور العظيم! كيف وهو نور الله.

ما مثلهم وهم يحاولون إطفاء نور الله إلا كمثل رجل يقف في رابعة النهار في يوم صائف محاولاً أن يُحِدَّ النظر إلى الشمس بطرْفٍ هضيم، وقد أرهقه الحر.

يقف وينفخ بفيه تُجاهها، يكدُّ ويتعب ويظنُّ أنه بنفخه السخيف مطفئٌ النور العظيم.

ما أسخفه وما أحمقه! وما أغباه من جنون؛ حين يظن أنه بضعفه سيصل إلى إطفاء نور الشمس.

إن الذين يمكرون بدعوة الله ودينه، ويحاولون مدافعة موعوده: أكثر حمقاً وأضل سبيلاً من ذلك السخيف الذي يحاول إطفاء نور الشمس بفيه.

وإن تلك السدود التي حاولوا أن يسدوا بها الأفق يفجرها طوفان الأقصى ويحطمها فلا يُبقي منها ولا يذر.

وإن تلك الظلمات المفروضةَ في الأفق يبددها النور الذي لا يُدافَع ويأتي عليها فلا يغادِر منها ظلمة؛ بل ولا ظِلة.

يا أيها المؤمنون في أزمنة الجَور..

يا أيها الثابتون في عصور الانزلاق:

فلتتابعوا ثباتكم، وليحرسكُم من الزلل إيمانكم؛ فإن نور الله قادم ليحطم كل ما ترونه من ظلمات بعضها فوق بعض ..

وليُظهرن الله دينه.. فلا تبتئسوا.

ولينصرنَّ أولياءه.. فلا يساورنكم الشك.

ولتفرحن قلوب بعد حزنها، وليجمعن الله ما تفرق، وليجبرنَّ ما كُسر، وليبدلنكم بعد خوفكم أمناً؛ فاعبدوه لا تشركوا به شيئاً.



يا أهل الجهاد.. الله معكم فلن تغلبوا!

﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ ٩﴾

(الأنفال 9)

تذكيرٌ للمؤمنين بلحظات حبيبة إلى قلوبهم، لا تمحوها الأيام، وأمرٌ لهم باستحضار نعمة الله تعالى عليهم.

لحظاتٍ لجؤوا فيها إلى ربهم الذي رباهم ودبر لهم من حيث لا يشعرون.

توجهَّت إليه قلوبهُم في المنعطفِ التاريخيِّ الحاسم الذي غيرَّ وجه العالم في غزوة بدر الكبرى، فانفرق بها ما بين الحق الجائي، والباطل الزاهق.

توجَّهتْ إليه طالبةً غوثه: "تستغيثون" بقلوب ملؤها التوحيد، لا تلتفت عنه إلى غيره، انقطعوا عن كل سبب، حال كون الأسباب مجتمعة لاستئصالهم.

لم تكن مَهمَّتهم أكثرَ من تجويد الدعاء وصدق الانقطاع إلى ربهم لتأتيهم الاستجابة ﴿فَٱسۡتَجَابَ﴾، بالفاء التي تُرتِّب ما بعدها على ما قبلها.

وما أحلى أن تكون استجابته "لكم".. لأجلكم؛ فأنتم أهله وخاصته، وعباده المحظوظون.

ثم بيَّن وجْهَ الاستجابةِ بقوله: ﴿أَنِّي مُمِدُّكُم﴾.. منه مددكم؛ فمن ذا الذي يغالبكم وهو وليُّكم.

ومُطَمْئنٌ التعبيرُ باسم الفاعل: "ممدكم" عدولاً عن الفعل: أُمدِدكم أو سأمددكم، فالاسم- كما يقول البلاغيون- يدل على الثبوت، فيصير المعنى: إن مدده لكم لا ينقطع أبداً؛ فاطلبوه وارقبوه.

أما مدده فخيرُ مدد، وجندُه خيرُ جند:

﴿مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾.

أيُّ مدد أعظمُ من هذا المدد: ألفٌ كاملٌ من الملائكة ﴿مُرْدِفِينَ﴾؛ متتابعين فوجاً وراء فوج، يقتحمون المعركة ويثيرون النقع.

يا أهل الجهاد:

من ذا الذي يهزم جيشاً ربانياً هذا مددُه؟.

إن الذي يحسم المعركة: حُسْن التوسل، وصدق اللجوء، وحرارة الاستغاثة.

فإن أجدتم ذلك تتابعتْ كتائبُ الملائكة على نُصرتكم، والوقوف معكم في مواجهة عدوكم، وحينئذ تنتهي المعركة وينحسم المد والجزر.

وكل هذا طمأنة وبشرى لقلوب المؤمنين؛ أما سبب النصر فهو أمر الله، وهو ما تعالجه الآية التالية، ونكتب فيها كلمات نستكمل بها المشهد في المنشور القادم إن شاء الله..

اللهم إنا نستغيث بك لأهلنا في غزة؛ فاستجب لنا وأمددهم بكتائب الملائكة المجاهدين.. ليجتمعوا معهم على قمع المحتل المجرم..

يا ولي المؤمنين ويا ناصر المستضعفين..



وعد كريم للمؤمنين بتوهين كيد الكافرين

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيۡدِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٨﴾(الأنفال 18).

إعلام رباني مطمئنٌ لقلوب المؤمنين، مشتمل على خبرين:

"الأول" أن للكافرين كيداً.

"والثاني" - وهو المقصود من الآية- الإعلام بأنه سبحانه سيوهن كيدهم.

والكيد: تدبيرٌ خفي محكم مُهَدَّف.

هم يدبرون بخفاء تدبيراً محكماً له أهدافه الإستراتيجية والمرحلية، وله وسائله وأدوات تنفيذه.

وإن مما لا ينبغي أن يجهله المؤمن:

أن الكافرين لا ينفكُّون عن الكيد للإسلام وأهله البتة، واليهود منهم أخبث كيداً وأعظم حقداً، ما قال الله سبحانه:

﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْ﴾(البقرة 217).

ولعله يقع في قلب قارئٍ للقرآن وناظرٍ إلى الواقع رهبةٌ من نجاح كيد الكافرين طالما يكدُّون فيه مستمرين لا يُقلِعون عنه! فأعلم الله تعالى في هذه الآية أنه وإن كان لهم كيد مستمر فإن الله موهنه.

وما أعذب وقع التعبير بالاسم: ﴿مُوهِنُ﴾.

كان يمكن أن يأتي التعبير بالفعل فيقال: يوهن أو سيوهن، لكنه عدَل إلى التعبير بالاسم الدالِّ على الثبوت والاستقرار؛ بخلاف الفعل المفيد للتجدد والحدوث:

موهن كيدهم بشكل ثابت لا ينقطع؛ لا يترك لهم فرصة للنجاح النهائي، ولا لقطف الثمرات جرَّاء الكيد المستمر.

أعلمنا سبحانه أنه لا يُمكِّنهم من تحقيق أهدافهم النهائية ويحول دون ذلك:

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ۝٥٢﴾(يوسف 52).

بل بيَّن لنا أن كيد الكافرين- بطبيعته التي قضاها الله- وإن بدا خطيراً مخيفاً - فإنه لا تتحقق غاياته ومقاصده:

﴿وَمَا كَيۡدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ۝٢٥﴾(غافر 25).

إنه لا مصير لكيدهم البتة ولا مآل له إلا الضلال والخيبة.

هاهم اليوم يكيدون للنيل من جند الله المجاهدين الصابرين:

تكلَّموا عن القضاء المبرم على المجاهدين ومقاومتهم الباسلة، وتكلموا عن تهجير الفلسطينيين، وتكلموا عن مرحلة ما بعد "حماس" في غزة... يكيدون، ويبدو من كيدهم ما تتزلزل له القلوب.

ولعل البعيد عن عالَم القرآن يُستلَب لبُّه وتُهزم نفسُه أمام ما يراه من كيدٍ شيطانيٍّ خبيث.

أما أهل القرآن فهم يسمعون ويرون ما يرشح من كيد الكافرين.. لكنهم لا يهتزون ولا تتحرك مخاوفهم..

يرون ما يمكرونه لكنهم يكادون يضحكون من أولئك الضعفاء المهازيل الذين أوهن الله كيدهم..

والارتباط بالله الذي يوهن كيد الكافرين سبيل النجاة من ذلك الكيد الموهَن:

﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔا﴾(آل عمران 120).

كفانا الله شر الأشرار وكيد الفجار، ورد الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً..



يبين الله لنا في سورة الإسراء معالم زوال دولة الصهاينة، ويحددها بثلاثة معالم:

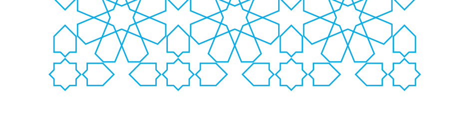
﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ لِيَسُـٔۥُاْ وُجُوهَكُمۡ وَلِيَدۡخُلُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوۡاْ تَتۡبِيرًا ٧﴾ (الإسراء 7).

المعلم الأول منها: إساءة وجوه بني إسرائيل:

﴿لِيَسُـٔۥُاْ وُجُوهَكُمۡ﴾ أي ليفضح أولئك العباد أولوا البأس الشديد جرائمكم يا بني إسرائيل وليكشفوا كذبكم على العالم وتزويركم للحقائق وعطشكم للدماء البريئة.

وقوله: ﴿لِيَسُـٔۥُاْ﴾ وإن كان في سياق طمأنة المؤمنين فإنه يحمل إشارة مؤلمة، وهي أنها مرحلة ستسيل فيها دما الأبرياء والمظلومين، وستُمزَّق فيها أشلاء الأطفال تحت دبابات الاحتلال اليهودي المجرم.

دماء أهلنا في غزة ليست هدراً.. إنها مادة فضح الاحتلال المجرم، ولولا هذه الدماء ما افتُضح! إذ كيف يفتضح بلا فضيحة؟.



هنيئاً للشهداء الذين يجتبيهم الله في هذه المعركة المباركة.. فدماؤهم تُسرج قناديل النصر والتحرير، وجماجمهم جسر العبور إلى إزالة الاحتلال البغيض.

وثمة وجه آخر لإساءة وجوه بني إسرائيل، ذلك المتعلِّق بتحطيم أسطورة "الجيش الذي لا يُقهَر"، وهي كذبة إسرائيلية معاصرة، ظهر اليهود بها قوةً لا تقاوم؛ حتى قيَّض الله سبحانه لهذه القضية طائفة صابرةً منصورة بإذن الله، فأساءت وجوه بني إسرائيل، وبيَّنت أنهم جبناء ضعفاء؛ لا يستطيعون مواجهة جند الله في معركة حقيقية، وغاية ما يستطيعونه استعراضُ القوة بقتل النساء وتمزيق الأطفال وهدم البيوت على رؤوس ساكنيها من المدنيين؛ فتعساً لهم وأضل الله أعمالهم.

"المعلم الثاني" فدخول المسجد كما الدخول الأول في زمن أمير المؤمنين عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه، دخول نظيف بأيد متوضئة وأرواح قرآنية وقلوب مؤمنة عميقة الإيمان.

أمَا وقد رأينا ونرى إساءة وجوه بني إسرائيل فعيوننا ترقب دخول المسجد وأرواحنا تشتاق إلى سجودٍ خاشعٍ فيه وإلى صحبة مجاهدة صالحة.

"المعلم الثالث" تتبير علوِّ اليهود، أي تدميره تدميراً تاماً، وهو المرحلة النهائية التي سيرتاح لها العالم ويرحب بها، ولن يجد الكيان المحتل من يبكي عليه في هذا العالم بإذن الله.

وقد استوفيتُ بيان تفسير هذه الآية على وجه مناسب في كتابي "بيت المقدس وأسس المعركة القادمة مع اليهود"، فمن أحب الاستزادة فليعد- غير مأمور- إلى الكتاب.



قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾﴾ (الإسراء 107، 108).

طائفة من الذين أوتوا العلم كانوا يبشِّرون بوعد الله؛ وعدِه سبحان بسحق إفساد بني إسرائيل وإخراجهم من المسجد المبارك، فقد قال:
﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُـٔۥُواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾﴾ (الإسراء 7).

يصفونه للناس حسبما فهموه من كتاب الله، ويُجلُّونه لهم لكأنما ينظرون إليه! يؤكدون زوال "إسرائيل"، رغم علوِّ بني إسرائيل، ونفوذهم في العالم، وتواطؤ القوى الكبرى معهم، وقوة تيار التطبيع المتدفق، وعمالة العملاء ونفاق المنافقين.

رغم كل ذلك؛ واثقون هم بوعد الله.. وإن استبعد الناس.

يحدِّثون عن الوعد وكأنهم مع جموع الفاتحين يدخلون المسجد؛ يملأون الدنيا تكبيراً وتهليلا.

فإذا جاءت مخايل الفتح وظهرت بوادره وبدأت مقدماته؛ رأوا في الواقع ما كانوا يبشرون به بدقة..

شاهَدوا إساءة وجوه بني إسرائيل:

- شاهَدوا تحطيم أسطورة الجيش الذي لا يُقهر.
- ورأوا العالَم ينتفض كراهية ل"إسرائيل".
- ورأوا الدولة التي بنوها فساداً وظلما تترنح وتتفكك.

عندها:

تراهم ينظرون إلى المشهد الذي كانوا يعرفونه؛ يتلون آيات الوعد ويُتلى عليهم، فيخرّون للأذقان سجداً لله فرحاً بمقَدِم بشريات وعده الكريم، وتعظيماً لآيات الكتاب الحكيم؛ يقولون:

﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾﴾(الإسراء 108).

وهم اليوم بعدما رأوا إساءة وجوه المفسدين ينتظرون دخول المسجد وإتمام عملية التتبير (التدمير الكامل) لعلو بني إسرائيل:

﴿وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾﴾ (الإسراء 7)، ويسألون الله أن يدخلهم مع الداخلين، وأن يجعلهم مع الفاتحين، وأن يهبهم سهماً في تتبير الفساد والعلو الكبير .. آمين.



"شواظ"

قول الله تعالى: ﴿يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا شُوَاظٞ مِّن نَّارٖ وَنُحَاسٞ فَلَا تَنتَصِرَانِ ٣٥﴾

(الرحمن 35)

سياق الآية:

سُبقت الآيةُ بقوله تعالى: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ٣٣﴾(الرحمن 33).

وفيها تحدي العالَمين من جنٍّ وإنسٍ أن يجاوزوا إرادةِ الله ويُعجزوا قدرته وينفُذوا عما قيدهم به؛ فهم مقيدون بقيد السماوات والأرض؛ فلا يستطيعون النفوذ من أقطارها المضروبة عليهم، وهم أسْراها.

ثم أخبر في الآية بأن ما كانت تحاول الجنُّ فعله- وهم أقدر عليه من الإنس- من النفوذ في أقطار السماوات لاستراق السمع وجمع أخبار الغيوب يواجه بـــ ﴿شُوَاظٞ﴾ من نار، وبنحاس.

أما الشواظ؛

فهو اللهب الصافي من الدخان؛ لأنه قد كمل احتراقه، وهو بهذا أشد إحراقاً.

إنها كتل نارية شديدة التلظي.

وأما النحاس؛

فقيل هو بمعنى الدخان، والوجه- على هذا المعنى- في إرسال الشواظ الذي لا يخالطه الدخان، ثم في إرسال الدخان وحده: أن يجتمع عليهم شدة الإحراق بالشواظ مع الاختناق بالدخان؛ كل على حياله.

وقيل: هو بمعنى النحاس الأصفر المعروف: يذاب ويصب عليهم، والله أعلم.

وفي تسمية القسام لسلاح من أسلحتهم ب"شواظ" توفيقٌ عجيب.

فهو سلاح يُرسلونه لعقاب شياطين يهود الذين يحاربون دين الله؛ كما يُرسَل شواظ السماوات على شياطينها الذين يحاولون النفوذ من أقطار السماوات والأرض.

۞ وسلاح القسام "شواظ": كتلة مدمِّرة شديدة الإحراق، تحرق العدو وتدمره بالكلية؛ كما يحرق شواظُ السماواتِ الشياطينَ ويقضي عليها.

۞ ويعقب انفجارَ "شواظ" في آليات العدو دخانٌ كثيفٌ يخنق من بقي فيه بقيةُ حياةٍ منهم، أو يذيب الإحراقُ الشديد معدنَ الآليات المدمَّرة فينصب على رؤوس الجند المجرمين؛ فيجتمع عليهم اللهب مع النحاس -على معنييه المحتملين-.

وجميل ختم الآية بترتيب نفي الانتصار على إرسال "الشواظ":
﴿فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾.

إنه إذا أُرسل عليكما الشواظ هذا والنحاس فإنكما- يا معشر الجن والإنس- لا تنتصران، وما أبعدكما عن النصر والنجاة.
ومن أرسل المجاهدون عليه الشواظ فلا ينتصر بإذن الله ولا ينجو.

إن اختيار اسم الشواظ لسلاح القسام المسلط على شياطين يهود لهو توفيق لاختيار قرآني دقيق.



قول الله في قصة غزوة الأحزاب:

﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا﴾(الأحزاب ٢٥).

آية نزلت في وصف نتائج المعركة التي شنتها قريشٌ والأحزاب على رسول الله ﷺ ، وامتنانٌ من الله على العُصبة المؤمنة المستمسكة بحبل الله.

إن الذي ردَّ أولئك المجرمين عن المدينة النبوية: الله جل وعز وتعالى، لم يبذل المسلمون جهداً، ولم يكدُّوا في القتال، وإنما فعلوا ما يجب عليهم فعله من الاستعداد التامِّ لخوض معركة الدفاع عن المدينة وعن الرسول ﷺ وعن الإسلام! وأعلنوا بفعالهم جهوزيتهم للجهاد والشهادة، فلما رأى الله تعالى منهم ذلك كفاهم القتال، وتولى ردّ الذين كفروا.

وهذا المعنى شبيه بقوله في أول سورة الحشر: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾(الحشر 2).

والأدب الذي ينبغي أن نسجله هنا:

أن عين المؤمن لا تلحظ غير تدبير الله ولا ترى غير حكمته وقدرته ورحمته، إنه لا يلحظ الأسلحة التي معه ومع إخوانه، ولا شجاعتهم ولا تخطيطهم ولا قوتهم، إنما هو الله وحده، وهذا محض التوحيد.

أما الباء- بطلة قصتنا- في قوله: ﴿بِغَيْظِهِمْ﴾ فهي للمصاحبة؛ بمعنى:

إن أولئك المجرمين جاؤوا إلى المدينة يحملون غيظاً في قلوبهم يريدون إنفاذه في النبي ﷺ والمؤمنين قتلاً وأسراً وتشريداً..

لكن الله ردّهم عن المدينة بغيظهم- الذي جاؤوا يحملونه- لم يستطيعوا إنفاذه؛ بل انصرفوا به- بصحبته- يجرون ذيول الخيبة.

فما أعظمها من باء.

وقوله:

﴿لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا﴾، يعني لم يحققوا أياً من غايات الحرب التي شنُّوها، ولم يصلوا إلى أيٍّ من أهدافها التي أرادوها.

وكذلك.. نسأله تعالى أن يصنع بالصهاينة وحلفائهم ما صنع بالأحزاب من قبل، نسأله أن لا يرفع لهم راية ولا يحقق لهم غاية، إن ربنا قويّ عزيز..



ذلة المغلوب بمقدار عزة الغالب!

قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلۡأَذَلِّينَ ٢٠﴾ (المجادلة ٢٠).

المحادّة: أن يأخذ كلٌّ من المتخاصمين حدّاً غير حدِّ صاحبه؛ فهما متواجهان متضادّان.

والذين يحادون الله ورسوله هم الذين يدافعون دينَ الله ويعادون أولياءه ويحاربون جنده، ويحسبون أنهم على شيء.

هؤلاء قد ارتقَوا مُرتقىً صعباً، وأولجوا أنفسهم في مسلكٍ صعب.

إنهم يواجهون الله، والله لا يغالب.

لقد تكبروا حقاً في أنفسهم وعتَوا عُتُوّاً كبيراً.

ولَّما تكبروا وعتوا: كوفئوا بالإذلال- والجزاءُ من جنس العمل-:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلۡأَذَلِّينَ﴾.

وتستوقفنا هذه الفاصلة القرآنية وقفتين:

الأولى التعبير باسم الإشارة للبعيد ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، المنبئ بأنهم سَفُلوا كثيراً وصاروا في هاوية بعيدة، ساغ معها الإشارة إليهم كما البعيد.

الثانية ﴿ٱلۡأَذَلِّينَ﴾، على وزن: أفعلين، مفردها: أفعل التفضيل: أذلّ، والأذلّ بـــ "ال" التعريف لإفادة أنه لا أذلَّ منه! إنه الأذلُّ على الإطلاق.

فالمعنى:

إن الذين يعادون دعوةَ الله وجندَه يبلُغون الدرْك الأسفل من الذلة التي لا يهوي إليها غيرهم.

والله العزيز لا يغالب، ومَن غالبَ اللهَ تعالى غُلِب.

وقد قيل:

"بمقدار عزة الغالب تكون ذلة المغلوب"، فهل لك أن تتصوَّر شدة ذلَّتهم؟!

ثم اعلم- حفظك الله- أن الذين ضُربت عليهم الذلة ولازمَتْهم في تاريخهم كله هم اليهود، قال تعالى: ﴿وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلۡمَسۡكَنَةُ﴾(البقرة ٦١)، وقال: ﴿ضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيۡنَ مَا ثُقِفُوٓاْ﴾(آل عمران ١١٢).

وإنما لازمتهم الذلة لكونهم أئمة المحادِّين لله ورسوله، ولمّا كانوا كذلك كانوا الأذلَّ حقاً، إذ الأعز سبحانه هو الذي أنزل فيهم بأسه وعقابه وسوء عذابه.

وليسلِّطنَّ عليهم جندَه وعبادَه الصالحين ليجعلهم ستار قدرته في إذلالهم وتعذيبهم.

والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

الخاتمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله وبعد:

فما قرأتَه -سددك الله- كان تَطوافاً في آيات من القرآن، بعثتْ على اختيارها اللحظةُ والخاطرُ العابرُ؛ أَعبرَه حدثٌ من أحداث الطوفان أو موقفٌ أو منشورٌ يتعلَّق به، ولم يكن انتقاءُ المواضعِ منهجياً بالضرورة، لكن يجمعها: أنها أسنة قرآنية تحارب بها الأمة عدوّها، وتبني المؤمن بالقرآن بناء قوياً يؤهله للانتصار لهذا الدين، وتصنع منه بطلاً يقاتل عن دين الله بشغف وشجاعة وضراوة؛ يحب الموت ويطلبه كما يحب أعداؤه الحياة ويطلبونها، فيظفر- إذ ذاك- بالحياة العزيزة وبالآخرة الباذخة النعيم.

سيسخِّر الله تعالى للأرض المقدَّسة جنداً من صفوة عباده يحررونها من نير الاحتلال الغاصب، ويطهرونها من دنس اليهود المجرمين، ويرسمون لوحة النصر كأبهى ما يكون من الجودة والإتقان والبهاء والجمال..

جنده- رضي الله عنهم- تربوا في حلقات القرآن، وفي محاريب العبودية الحقة، وعلى طريقة مربيهم المعلم ﷺ، لم يعرفوا لمواضع الرِّيَب سبيلاً، ولا ولَغُوا في المحرَّمات من الشهوات كثيرا أو قليلاً.. فلله درُّهم! إن يد الله هي من زرعتهم، وجيل زرعته يد الله لا تحصده يد البشر.

ولنختم باستراحة ترمم الجروح وتعين على الطريق:

أفكر في لحظة اجتماعنا على بوابات المسجد الأقصى حشودًا مجتمعين من بلاد الإسلام..

قلوبٌ متآلفة، وأيادٍ متماسكة..

ألسنة تلهج بصوت واحد وذكر مكرَّر: "الله أكبر ولله الحمد"..

نتسابق إلى اعتناق أرض المسجد للسجود..

ونركض في تلك الساحات بمشاعر عالية، وقلوب خاشعة، ودموعِ فرحٍ منهمرة..

نستمع إلى أول أذان بعد الفتح.. بصوت يشبه صوت بلال.

في قلوبنا شعور غريب يجتاحها برقَّة وسكينة، كأن رسول الله بيننا.

روحه تطوف لتمسح على أرواحنا الجريحة لتشفى، وتطبطب على جروحنا الثاعبة لتلتئم.

نَصُفُّ أقدامَنا للصلاة..

نكبر وراء إمام من أئمة الجهاد وعالمٍ قاد الزحف، وأثار بصوته إقدام المجاهدين..

بصوتٍ شجيٍّ.. يتلو فاتحة الكتاب؛ تنساب في قلوبنا انسياباً، ويرتل سورةَ الفتح؛ تتنزل على قلوبنا تنزلاً..

نجلس بعد الصلاة للأذكار، وتجول أعيننا في أرجاء المسجد البهي..

آمنين لا نخاف..

لا أزيزَ للطائرات، ولا ضجيج للمتفجرات، ولا عبرية تزعج سمعك اليوم، ولا هم يحزنون.

ذلك اليوم الحق؛ لا مِرية فيه ولا شك.

وبعد:

ففي الختام أطلب إلى قارئ هذه الكلمات أن يتذكّرها عند فتح بيت المقدس، ويستدعي ذكرها بين الفاتحين، وأن يذكر صاحبها بينهم بدعوة صالحة، فإنه يرجو أن يُدرك أولئك الفاتحين ويأمل أن يكون بينهم؛ نائلاً ما ينالونه من كرامة الله لهم بتحقيق الوعد على أيديهم.

فإن كانت المنيةُ قد سبقت إليه؛ فليسألوا الله له الرحمة والمغفرة، وأن لا يُحرم أجرهم، وأن يَجمعه الله معهم في جنات النعيم؛ بحضرة حبيبهم رسول الله ﷺ وأُسْد الله المجاهدين من كل وقت وحين.. إن ربنا كريم رحيم.

رأفت المصري

الفهرس

